BOBST LIBRARY
3 1142 01011 0560

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

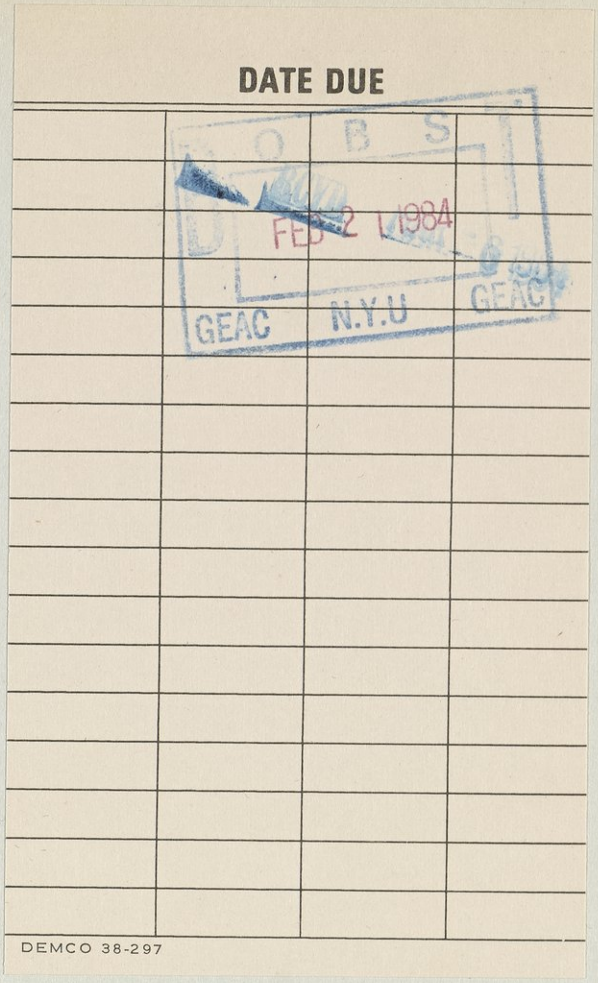

الزهراء فاطمة بنت محمد (ص)

الطبعة الاولى

١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م

حقوق الطبع محفوظة لـ (مكتبة العلمين العامة)

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

Muḥammad, ʿAbd al-Zahrāʾ
" ʿUthmān

مكتبة العلمين العامة
النجف الأشرف

١٤

/ al-Zahrāʾ ... /

الزهراء

فاطمة بنت محمد (ص)

تأليف

عبد الزهراء عثمان محمد
من اعضاء أسرة (مكتبة الامام الحكيم العامة) فى الهوير

الكتاب الذي احرز الجائزة الثانية فى مباراة التاليف
عن حياة الصديقة الزهراء ـ عليها السلام ـ

تبرع مشكور

ساهم في طبع هذا الكتاب بمبلغ (١٥٠ دينار) : الوجيه المحسن
الحاج عبد مظلوم (شيروزه) والد الوجيه المؤمن عبد الهادي
عبد مظلوم صاحب (شركة النجف العالمية للسياحة والنقل)
وفقهما الله لمراضيه .

BP
80
.F36
.M83
c.1

(بين يدي الكتاب)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الانبيـاء والمرسلين محمد وآله الطاهرين .

وقبل سنةٍ وعدة أشهر أعلنت (مكتبتنا العامة) ـ إضافة الى مشاريعها الفكرية المستمرة ـ : مباراتها الاسلامية الاولى حول تأليف كتب تبحث عن شخصية الصديقة الزهراء (ع) ووضعت جوائز نقدية ثلاثة (٥٠٠ دينار) وعينية اثنتين (١٥٠ كتاباً) لخمسة من الفائزين . وتم ذلك بتبرع ـ مشكور ـ من الوجيه المحسن والشاب المؤمن السيد حسن السيد حبيب الصراف ـ من مفاخر تجار النجف الاشرف ـ جعله الله مناراً للخير وقدوة للصلاح .

ولدى انتهاء المدة المحددة للمباراة واجتماع الكثير من الكتب ، خرجت النتائج من قبل لجنة التحكيم ـ وهم من علية أهل العلم والادب في النجف الاشرف ـ كالآتي :

الجائزة الاولى (٢٥٠ دينار) للأستاذ سليمان كتاني ـ من لبنان

الجائزة الثانية (١٥٠ دينار) للأستاذ عبد الزهراء عثمان ـ من القرنة

الجائزة الثالثة (١٠٠ دينار) للأستاذ جاسم هاشم العبادي ـ من العمارة

الجائزة الرابعة (١٠٠ كتاب) للأستاذ فاضل عباس الميلاني ـ من النجف

الجائزة الخامسة (٥٠ كتاب) للأستاذ عبد الكريم الطائي ـ من إربيل

والملاحظة : أن لجنة التحكيم تأملت ـ كثيرا ـ في التفاضل بين كتابي الاستاذ الكتاني والاستاذ عبد الزهراء ، من حيث أن رهافة الحرف وترف الكلمة وسحر التعبير في الاول أكثر . ورصانة العرض ،

وتركيز البحث وحشد المفاهيم الاسلامية في الثاني أوفر .

وبعد انتهاءدور التحكيم وتوزيع الجوائز على الفائزين ، احتفضت (المكتبة) ـ حسب شروطها المدرجة في إعلان مباراتها ـ بالكتب الثلاثة الفائزة بالجوائز النقدية ـ فقط ـ وأرجعت الباقي الى أصحابها بعد أن سجلت عليها بعض الملاحظات ، رجاء أن يعمد أصحابها لتصحيحها فيما إذا شاء لها التوفيق أن تطبع .

وقبل عدة أشهر طبعنا الكتاب الاول (فاطمة الزهراء وتر في غمد) تأليف سليمان كتاني ـ في النجف الاشرف ـ . وسرعان ما نفدت نسخة ، فسمحنا لمؤلفه أن يطبعه ـ ثانية ـ في لبنان ـ .

ويحين الدور ـ اليوم ـ لان تتحف الامة الاسلامية والمكتبة العربية بالنتاج الرائع والثمر الجني والنضج الفكري ذلك هو الكتاب الذي لاريب فيه : **(الزهراء فاطمة بنت محمد (ص))** تأليف الاستاذ عبد الزهراء عثمان محمد ـ من قرية الهوير في قضاء القرنة ـ .

وإن نجاح الاستاذين : ـ كتاني وعبد الزهراء ـ في كتابيهما بهذا المضمار لدليل واضح على أن العبقرية ليست وقفاً على القمم الشاهقة والبروج المجنحة والهالات العريضة . إنما العبقرية : قدح زناد ، وخصب وعي ، ورعش واقع ، بأي أسلوب كانت ومن أي جهة انطلقت .

فالأستاذ الكتاني عرفت عبقريته ـ من حيث الاسلوب الساحر والمفاهيم الرصينة ـ بتفوقه في مباراة الامام علي ـ عليه السلام ـ أولاً ـ ثم في مباراة الصديقة الزهراء ـ عليها السلام ـ ثانيا ـ .

وعلى هذا الغرار جاء تفوق الاستاذ عبد الزهراء عثمان بهذه

المباراة المشرّفة ، وسيسجل له الزمن ـ عما قريب ـ تفوقا مستمرا في مبارياتنا المستمرة بعون الله تعالى .

أما لو سألت الواقع الوديع عن هوية الاستاذين لكان الجواب ـ بكل بساطة ـ : ان الكتاني موظف بسيط في قرية بسيطة في لبنان تدعى (بسكنتا) . وعبد الزهراء عثمان معلم مدرسة في قرية بسيطة من قضاء القرنة تسمى (الهوير) .

وهكذا ينتفض الفجر المحموم من دثار الليل الداجي ، وينطلق البركان الثائر من الارض المطمئنة ، ويشهق الاعصار المسعور من ذرات الغبار المترامي .

وبالتالي : هكذا يرعف القلم الطيع بالاسلوب الساحر ، والمفاهيم الفكرية المجنحة في يدي الاستاذين العبقريين : (كتاني وعبد الزهراء) .

فالي القارىء الواعي تقدم هذا الكتاب الاسلامي القيم ، فقد كتب مؤلفه عن حياة الصديقة الزهراء ـ عليها السلام ـ بقلم فكري مترف ، وأدبٍ رسالي بناء ـ واستعرض شخصية المرأة المثالية المسلمة بالحديث عن أطوار التأريخ الذي واكب ثقل القرآن الثاني وامتداد الاسلام وربيبة الوحي الالهي ـ سلام الله عليها ـ منذ ولادتها الي حين وفاتها .

ولو ألقينا أضواء خاطفة على فصول الكتاب المتسلسلة لرأينا المؤلف يواكب في (المدخل) من كتابه ولادة الحلم الاسلامي ، بولادة النبي العظيم وصورة موجزة عن نشأته وكفاحه المرير في سبيل تقويض آثار الجاهلية العمياء وتوطيد أسس الشريعة السمحاء بعد تحمله أعباء الرسالة المقدسة . ثم يتحدث عن ولادة بنت الرسالة المحمدية ، والظروف القاسية التي مرت على أمها السيدة (خديجة) حين ذاك .

ويصور ــ بعد هذا ــ تصلب (معسكر الايمان) المتمثل بشخصية قائده المظفر النبي محمد (ص) مقابل معسكر الضلال المتنمر بجبروته وطغيانه . ويأتي على دور هجرة القيادة الاسلامية من (مكة) الى (يثرب) ، واتساع أفق الدعوة الاسلامية بعد ذلك . ويقص علينا ــ بترف ــ مرحلة انتقال الصديقة الزهراء (ع) من بيت أبيها محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى بيت زواجها الجديد من الامام أمير المؤمنين عليه السلام وبيان (مراسيم الزواج) . ويتلو ذلك : الحديث عن (الغرس المبارك) لذلك الزواج الميمون . ثم يعطي صورة إسلامية عن شخصية الصديقة الزهراء : في (نظر القرآن الكريم وفي ظلال السنة الشريفة) . ويشير المؤلف ــ بعد ذلك ــ الى (نقاط مضيئة) تشرق من آفاق حياة الصديقة الزهراء (ع) على اختلاف أدوارها . ويوصل العرض التأريخي الي أن يلتقي (ببوادر المأساة) في آخر حياة السيدة الزهراء (ع) ، فيصور (الخطب الجلل) بفقد أبيها قائد الامة الاسلامية محمد (ص) ، ويمثل (هبوب العاصفة) في الانقلاب الجاهلي الذي حدث من جراء ذلك ، ثم يقتضب البيان في (وقفة على أطلال فدك) الصورة البشعة للغزو البدوي السافر . وأخيرا وفي (نهاية المطاف) يسجل المؤلف عبر التأريخ ــ أروع خطاب بليغ في أحرج موقف رهيب ، يدلي با (الحجج الناصعة) على لسان أول امرأة مسلمة مظلومة في عهد أول خلافة إسلامية . أخذه عن مصادره الوثيقة ، وشرح فقراته شرحا اسلاميا مفصلا ، الامر الذي دل على أن للاستاذ المؤلف يدا غير قصيرة في عامة العلوم الاسلامية ، وأنه من قراء الكتاب لا من هواته .

فالي المؤلف ثناء وتقدير ، والي القارىء الكريم هذا السفر القيم تقدمه:

١ ذي القعدة / ١٣٨٨ هـ

ادارة مكتبة العلمين العامة
في النجف الاشرف

الإهداء

اليك يا رسول الله (ص)
وأنت يا أمير المؤمنين (ع)
أرفع هذا المجهود الضئيل
راجياً قبوله منكما

المؤلف

آيات من كتاب الله

بسم الله الرحمن الرحيم

• « إنمّـا يُريدُ اللهُ لِيـُذهبَ عنـكم الرجسَ أهلَ البيت ويـُطهرّكم تطهيراً » .

• « قلْ لا أسألكم عليه أجراً الاّ المودةَ في القربى » .

• « فمَن حاجّكَ فيه من بعد ما جاءَكَ من العلمِ فقلْ تعالوا ندعُ أبناءَنا وأبناءكم ونساءَنا ونساءكم وأنفسَنا وأنفسَكم ثمَ نبتهل فنجعل لعنةَ الله على الكاذبين » .

كلمات مشرقة

« ... فجعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك ، والصلاة تنزيها لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام تثبيتا للاخلاص ، والحج تشييدا للدين ، والعدل تنسيقا للقلوب ، وطاعتنا نظاما للملة ، وامامتنا أمانا من الفرقة والجهاد عزا للاسلام وذلا لأهل الكفر والنفاق ، والصبر معونة على استيجاب الاجر ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة ، وبر الوالدين وقاية من السخط ، وصلة الارحام منسأة في العمر ومنماة في العدد ، والقصاص حقناً للدماء ، والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة ، وتوفية المكاييل والموازين تغييرا للبخسة ، والنهي عن الخمر تنزيها عن الرجس ، واجتناب القذف حجابا عن اللعنة ، وترك السرقة ايجابا للعفة ، وحرم الله الشرك اخلاصا له بالربوبية ، فأتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فانما يخشى الله من عباده العلماء ... » .

الصديقة الزهراء

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

إمتلأت نفسي ارتياحا حين نبئت بالمسابقة التي دعت اليها (مكتبة العلمين) الموقرة ـ في النجف الاشرف ـ لتأليف كتاب مستقل عن شخصية الزهراء فاطمة بنت محمد (ص) ، وعلة ارتياحي لهذا النبأ : أن كثيرا من شباب أمتنا اليوم تجهل الكثير عن أهل البيت ـ ع ـ وليس بدعا من الامر حين نقول ذلك ، لان شباب الامة اليوم قد فقدوا الدافع الذي يدفعهم للبحث عن الشخصيات الاسلامية بعد أن جهلوا الاسلام برمته ، وجذبتهم الالوان التي زينت بها حضارة الغرب الجاهلي ، واغتروا بها وركضوا خلف سرابها الموهوم ، وثمت نقطة أخرى تؤصل هذه المأساة ، إن الشباب المعاصر ليس في وسعه الحصول على كتب مبسطة تنطق بلغة العصر ، تعرض حياة هؤلاء القادة من أهل البيت عليهم السلام لان أكثر ائمة اهل البيت ما زالت حياتهم مبعثرة في كتب السيرة القديمة بترتيب لايستسيغه شباب اليوم الذي أعتاد على المجلات الملونة والجرائد المنمقة والكتب الجذابة ، وحين تكون الكتب القديمة بأساليبها غير المستساغة اليوم من العوامل التي تسهم في عملية جهل

شبابنا بسيرة أهل البيت ـ ع ـ فقد أصبح لزاما على ذوي الاحاطة بسيرة أهل البيت ـ ع ـ أن يقوموا بمهمة التأليف بأسلوب عصري عن هذه السيرة الجليلة . وحين يتولون هذه المهمة فانما يتولونها كجزء من عملهم كدعاة لله ونهجه المقدس ، لان تبيان سيرة أهل البيت عليهم السلام يمثل التجسيد الحي للرسالة الاسلامية برمتها ، فهؤلاء القادة قد هظموا الاسلام بطابعه الاصيل فتمثل في واقع حياتهم كلها ، فهم في الفكر وفي السلوك وفي العواطف وكل ألوان نشاطاتهم اسلام يسير على الارض ، والباحث في حياتهم لايتناول جانبا منها حتى يلمس جانبا من المنهج الالهي قد انعكس واقعا متحركا حياً ونحن حين نقول هذا لم نكن لننطلق بدافع عاطفي ينبثق من حبنا لاهل البيت ـ ع ـ وانما نبني هذه الحقيقة على أساس رصين من أحكام لاتقبل النقد أو الرد كقوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » . فأهل البيت ـ ع ـ قد طهرهم الله عقلا ومنطقا وسلوكا من كل آثار الجاهلية فعادوا وهم يحملون طابعا كله قدسية وطهارة مطبوعة بطابع منهج الله سبحانه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وحين يكون أهل البيت ـ ع ـ قد أحتلوا هذا المقام السامي في الشرع الاسلامي المقدس فقد انطلق الرسول الاكرم لتبيان هذه الحقيقة حين أعلن لامته موضحا قيمة أهل بيته ـ ع ـ بقوله (اني خلفت فيكم ما أن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله وعترتي أهل بيتي فأنظروا كيف تخلفوني فيهما) . فهم على هذا الاساس ترجمان القرآن وصورة حية لمبادئه السماوية المقدسة ، فالكتاب قرآن صامت وهم قرآن ناطق ، وحين يتبوأ اهل البيت (ع) هذا المقام الكريم عند الله ورسالته الخالدة فقد أصبح لزاما على

المنظمات والهيئات الاجتماعية والثقافية أن تحذو حذو (مكتبة العلمين الموقرة) في شحذ الهمم بوسائل مادية أو معنوية للتأليف عن سيرة أهل البيت ـ ع ـ لكي يجد شبابنا ما يسد فراغهم من كتب سيرة مبسطة تلهمهم معرفة حية بالرسالة الاسلامية. ونحن حين تتناول الحديث عن الزهراء ـ ع ـ بصفتها غرس النبوة وشجرة الامامة فأنما تتكشف لنا أبعاد الرسالة الاسلامية بطابع تجسيدي نلمسه في كل جانب من جوانب شخصيتها ـ ع ـ ونحن نتابعها ، ففي قرانها بعلي بن أبي طالب ـ ع تتجلي لنا الصورة الحية التي رسمها الاسلام للقران الذي ارتضاه خالق هـذا الوجود ، وفي مواقفها البطولية بعد وفاة أبيهـا يتكشف لنا المدى البعيد الذي رسمه الاسلام للمرأة من حقوق وواجبات ومدى فاعليتها في بناء المجتمع الاسلامي ، وعلى هـذا الاساس تقاس سائر جوانب شخصية الزهراء ـ ع ـ وسيدرك القارىء الكريم ـ انشاء الله ـ هذه الحقيقة عند متابعته لهذا البحث المتواضع، ومن الله تعالى نستمد العون والسداد انه سميع مجيب .

المؤلف
عبد الزهراء عثمان محمد
قرنة ـ هوير

المدخل

زفت البشرى الى عبد المطلب ـ شريف مكة ـ بميلاد محمد (ص) فأشرق وجهه وتهلل فرحا لهذا النبأ لانه وجد في هذا الوليد الجديد خلفا لأبنه الفقيد عبد الله الذي ملأ قلب أبيه أسىً وألما . وهبَّ الشيخ الكريم الى بيت اليتيم ليستقبل وديعة ولده الفقيد ، وكان أول واجب أداه الرجل الحنون هو تسميته بـ (محمد) ، ومنحت آمنة وليدها كلَّ رقة وحنان حتى أصبح في عمر يستحق بعثه الى المراضع في البادية كما هي العادة التي يتبعها الآباء لتربية أبنائهم تربية ينهضون على أساسها بأعباء الحياة القاسية التي يحياها انسان الصحراء : من فروسية وركوب خيل وحمل سلاح وغير ذلك ، .

وأرسل عبد المطلب الحنون وديعته الى البادية حيث تولت حليمة السعدية تربيته ، ويترعرع محمد (ص) في حضن مربيته الجديدة ويعمَّ الخصب كل الحي الذي نشأ فيه فضلا عن البيت الذي تولى مسؤولية رعايته وتنشئته .

وتمضي الايام وتنتهي الفترة التي أعدت لتربية الطفل اليتيم ، ويعود الى أمه ليحظى من جديد بحنانها وأخلاصها المنقطع النظير ، وليتفيأ تحت ظلالها الوارفة ، ولكن لفترة قصيرة ، اذ تعاجله يد المنون فتخطف أمه وتسلّمه ليتم جديد ، بل لتعمق آثار اليتم وتؤصلها في نفسه ، وتتسلمه يد عبد المطلب الامينة لتواصل رعايته بعيدا عن آثار اليتم وذكريات الماضي ، وتفيأ الصبي محمد (ص) ظلال جده الحنون ، ولكن الموت عاجله فغيَّب شخص جده عبد المطلب عنه ، فعادت أشباح اليتم بضراوتها لتخيم على محمد (ص) من جديد .

ويسرع أبو طالب عمه الكريم ليسد الثغرة التي حدثت في حياة ابن أخيه ، وليؤد وصية أبيه بشأن حبيبه محمد حيث ورثه وصية

خالدة مادامت السماوات والارض : « انظر ــ يا أبا طالب ــ أن تكون حافظا لهذا الوحيد الذي لم يشم رائحة أبيه ولم يذق شفقة أمه، انظر أن يكون ــ من جسدك ــ بمنزلة كبدك .. فاني قد تركت بنيّ كلهم وخصصتك به لانك من أم أبيه ... » .

وينتقل محمد (ص) الى بيت عمه أبي طالب ليجد الرحمة والحنان ترفرف فوق رأسه لتنسيه آلآم حزنه وكآبته التي نالته بعد فقد أمه وجده بعد أبيه ، ويترعرع محمد (ص) وهو يتذوق طعم الحنان بأجلى صوره فهو يتمتع بشفقة الابوة متمثلة بشخص عمه أبي طالب ، وبحدب الامومة متمثلا بشخص زوجة عمه فاطمة بنت أسد التي وجد فيها الام الرؤوم التي احتضنته كما احتضنت وليدها عليا (ع) والى جانب هذه اللذة التي ذاق محمد طعمها وجد لذة الالفة والانسجام الروحي بينه وبين ابن عمه علي (ع) حيث وجد فيه خير صفي له في فتوته ، ويسخر أبو طالب كل طاقاته المعنوية والمادية لأجل محمد وديعة أبيه العزيز ، فوجد محمد (ص) في عمه هالة من العاطفة الخيرة تجاهه حتى صحبه في أسفاره الى بلاد الشام .

وترعرع الفتى في بيت عمه وراح ينفرد عن قومه في لون حياته الخاصة والعامة ، فالصدق والامانة والوفاء وحسن الخلق وجفاء الاصنام والعقائد السائدة ، كل ذلك كان ديدنه (ص) حتى اعتادت قريش أن تسميه (الصادق الامين) وقد أحتكمت لديه في رفع الحجر الاسود عند بناء البيت فحلّ خصومتهم بأحضاره ثوبا وضع في وسطه الحجر الاسود وأمر كل قبيلة أن ترفع طرفا من أطراف الثوب ، وعند وصوله الى المكان المعدّ له أنزله من الثوب . وقضى بذلك بينهم قضاءً حقن لهم دماءهم مما جعل صيته تتحدث به أندية مكة وغيرها ، وبلغ

صيته النساء القرشيات فأعجبن ومن بين النساء اللواتي طرق سمعها حديث محمد (ص) خديجة بنت خويلد الامرأة القرشية التي عرفت بثروتها وشرفها وعفتها ، وكانت قد فقدت زوجها واختزلت من عمرها زمنا دون زواج .

سمعت هذه المرأة الثرية عن محمد (ص) الشيء الكثير وراحت تستقصي أنباءه كل حين ، وبلغها يوما أن محمدا يفتش عن مالٍ ينطلق به مع القافلة الى بلاد الشام للمتاجرة هناك حيث أعتاد عرب الحجاز ــ يومذاك ــ أن يتاجروا مع بلاد الشام أو الحبشة حيث كانت مكة سوقا عالمية ومفترق طرق التجارة بين الشمال والجنوب ، وتجد خديجة هوىً في نفسها لمدّ محمد بما يحتاج اليه من مال شريطة أن يكون لها نصيب من الربح الذي يكسبه ، وبعثت لذلك غلامها (ميسرة) بغية التفاوض مع محمد . وعلى الفور يتفق الطرفان ويسافر محمد وميسرة في تجارتها الى الشام ، وما هي الا أيام ويعودان وهما يصحبان ربحا وفيراً ، ويسرع ميسرة الى سيدته ليبشرها بنتائج الرحلة ، ولكنها لم تكترث للمال ، بل راحت تستفسر عن سلوك محمد خلال الرحلة ، وراح ميسرة يوضح ما رآه عن محمد ، فما كان من خديجة الا أن يشرق وجهها بالبشر والامل ، الامل الكثير الــذي تنتظره ، وهنا تزداد ثقة مما سمعته من الانباء المثيرة عنه ، وهنا تتحدى خديجــة التقليد الذي أعتاد عليه الناس ــ يومذاك ــ حيث تبعث أختها هالة ــ أو نفيسة ــ بنت منبه (على قول) لتتصل بمحمد ، فتعرض عليه رغبتها في الزواج منه ، فيجد محمد (ص) هوىً في نفسه للفكرة التي عرضت عليه ، فيتصل بأعمامه ليشرح لهم ما جرى بينه وبين ممثلة خديجة ، فيستقبل أبوطالب وهو زعيم مكة وشريف العرب ــ يومذاك ــ

هذا العرض بكل رحابة صدر واطمئنان ، ويتصل بذوي خديجة ليخطبها منهم مفتتحاً حديثه بالكلمة القصيرة الآتية : « الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابراهيم وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتاً محجوجا ، وحرما آمنا ، وجعلنا الحكام على الناس ، وبارك لنا في بلدنا الذي نحن به ثم إن ابن أخي محمد بن عبد الله لا يوازن برجل من قريش الا رجح ، ولا يقاس بأحد الا عظم عنه ، وان كان في المال قل ، فان المال رزق حائل وظل زائل ، وله في خديجة رغبة ولها فيه رغبة ، وصداق ماسألتموه عاجله من مالي وله ــ والله ــ خطب عظيم ، ونبأ شائع » .

وبعد مناقشات مع عمها عمرو بن أسد ، قبل العرض وزوّج ابنة أخيه الى محمد (ص) ، ويعانق قلب محمد (ص) قلب خديجة وتنسجم روحاهما في وقت كان محمد (ص) يبلغ الخامسة والعشرين سنة من عمره ، ويبلغ عمر خديجة الاربعين سنة .

وتمر الايام سريعة يعيش فيها محمد وخديجة عيشة هانئة ندية ، يقضي فيها محمد أكثر اوقاته بعيدا عن غوغاء الجاهلية وضجيجها في (غار حراء) خارج مكة متأملا في أوضاع قومه المتردية ، متفكرا في ملكوت الله سبحانه ، وخديجة تشاركه أحاسيسه ومشاعره بقلب يفيض بالحب والوفاء ، وهي في داخل بيتها ، ويبلغ محمد (ص) الاربعين من عمره ، ويطالعه الوحي ليكلفه مسؤولية حمل رسالة الاسلام ــ رسالة السماء ــ وتبليغها للمجموعة البشرية ، فيستمع الى أول بيان الهي ليتحمل أعباء الرسالة « اقرأ بأسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم .... » .

ويعود محمد وهو يحمل نبأ تكليفه بحمل الهداية الى الانسانية ،

يعود من (حراء) الى بيته فتستقبله خديجة الوفية ، فيبشرها بما رأى، فتصدقه وتؤمن به ، ويصدقه علي (ع) حيث كان يافعا وقد رباه محمد في بيته بعد أن أملق عمه أبو طالب ، وتنشأ أول نواة في الارض لخلق « خير أمة أخرجت للناس ... » .

ويحس محمد (ص) بدوّار وتعب فيطلب لخديجة أن تدثره لينام قليلا ، ولكنه فوجيء ببيان السماء للنهوض بأعباء الدعوة وأن يضم الى جانب حمل الرسالة حمل الدعوة لها : « يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فأهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فأصبر » ...

ونهض لينفذ نداء السماء ، فيتصل بأصدقائه وممن يثقون بصدقه وأمانته سابقا ، فصدقه بعضهم . وأستمر الرسول (ص) يدعو بصورة فردية لان الظروف يومئذ لاتسمح الا بسرية الدعوة ، واستمر يعمل طبقا لهذا المنهاج ثلاث سنين لتثقيف أتباعه في دار الارقم المخزومي ، ولكن هذه الفترة من عمر الدعوة لم يكسب فيها غير زهاء الاربعين شخصا ، أكثرهم من الفتيان والفقراء . وفي أحد الايام تلقى محمد (ص) بيانا كلفه بالانتقال الى مرحلة جديدة من مراحل الدعوة المباركة : « وأنذر عشيرتك الاقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .

وبهذا النداء الالهي القويم يدخل الرسول (ص) مرحلة جديدة : ــ مرحلة إنذار عشيرته ــ وكان ذلك بسبب الحياة القبلية التي يعتمد عليها المجتمع المكي ــ بل الحجازي ــ يومذاك .

ويدعو محمد (ص) عمومته وأبناء عشيرته من بني هاشم ليتناولوا وليمة أقامها لهم في بيته ، ويعلن لهم : أنه مرسل من الله ، وأنهم مطالبون بتصديقه واتباعه ، لكنه فوجيء باستهزاء عمه عبد العزى ابن

عبد المطلب المعروف بأبي لهب ، فعرقل مسيرته بكلمته الهوجاء مخاطبا بني هاشم : « خذوا على يدي صاحبكم قبل أن يأخذ على يده غيركم، فان منعتموه قتلتم وان تركتموه ذللتم » .

ولكن أبا طالب ــ الرجل المؤمن الفذ ردّ أبا لهب رداً عنيفا بقوله: « يا عورة ، والله لننصرنه ثم لنعينه . يابن أخي ، اذا أردت ، أن تدعو الى ربك فأعلمنا حتى نخرج معك بالسلاح . . » .

وتتحدث أندية مكة بخبر محمد (ص) ويؤلف أبو لهب حزبا لمقاومة الرسول (ص) فكان يخرج الى أحياء مكة وأسواقها بحثا عن محمد (ص) ، وكلما وجده مع قوم أفسد عليه أمره ومنعه من تبليغ رسالته ووقفت قريش في وجه محمد وأصحابه آخذة بمبدأ ابي لهب ــ العدو اللدود الطليعي ــ لله ورسالته ورسوله ، وكأن أول مافكرت به قريش هو اتباع الطريقة السلمية في مواجهة الدعوة عن طريق مفاوضات تطفح بالمساومات والاغراء بالمال والجاه والسلطان . وكان يمثل محمدا في هذه المفاوضات عمه الوفي أبو طالب ، وكانت قريش تأمل أن يتنازل محمد عن دعوته تحت مطارق اغرائه بالمال وغيره ، ولكنه صرح بكلمة عنيفة وضح فيها تصميمه الثابت على دعوته لانها دعوة الله ، فلا تخضع للمساومات والاغراء : « ياعم ، لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي : على أن أترك هذا الامر ، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ... » .

وبهذه الكلمة الصريحة الخالدة قطع محمد (ص) هذه المفاوضات فأرتدت قريش على أدبارها مهزومة ، وكان لابد لها من تبرير لهزيمتها الفظيعة ، ففكرت باتباع سياسة التنكيل والتشريد لأتباع محمد (ص) حتى ينفضوا فتموت الدعوة في مهدها ، ونفذ هذا المخطط بحذافيره ،

فكانت أسواق مكة تضج بهتاف الدعاة الابرار وهم يهتفون : (أحد أحد) وكان ضحية هذه الخطة الهوجاء (ياسر وسمية) حتى فارقا الحيـاة .

ويمر محمد على مسرح التعذيب فيثير حماس الصابرين بقوله : « صبراً آل ياسر ، فان موعدكم الجنة » .

فيزداد هتافهم لله حتى تصعد أرواحهم اليه راضية مرضية ، ولم يقف التنكيل على أشخاص الصحابة الابرار وإنما تعدى الى شخص الرسول القائد نفسه حيث كان أبو لهب وزبانيته يلقون عليه الاحجار ويضعون الشوك في طريقه ليلا ، فكم كانت الدماء تسيل من أعضائه الطاهرة ولكنه يستقبلها بكلمته الهادئة : « اللهم اغفر لقومي فانهم لايعلمون » .

* * *

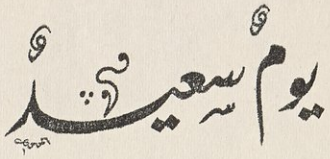
يوم سعيد

وفي مثل هذا الظرف الدقيق الذي تمر به الدعوة الاسلامية حيث يلتحم معسكر الإيمان ـ وهو ما زال غضا ـ مع معسكر الوثنية بقوته وجبروته . في مثل هذه المعركه الضارية بين رسالة السماء وفوضى الجاهلية ، وفي أقسى الظروف التي تمر بها الرسالة الاسلامية المباركة، يعلن البيت النبوي ـ بيت الرسالة ـ نبأ ميلاد فاطمة بنت محمد (ص).

ولدت فاطمة المباركة في وقت كانت أمها قد قوطعت نهائيا من جميع النساء القرشيات ،أسوة برجالهن الذين قاطعوا محمدا المنقذ(ص). وحين يكون بيت الرسالة قد قوطع من قريش هذه المقاطعة العنيفة ، وحين يحاصر هذا الحصار الشاق ، فلابد للسماء أن تحطم هذه الاغلال وتقهرها أمام عمل غيبي مشهود ، فما دام أهل الارض واهل الدنيا ـ وهم منغمسون في جاهلية جهلاء ـ قد تعاهدوا على محاصرة محمد وأهل بيته (ع) فالسماء مستعدة لنصرته ونصرة من يحذو حذوهم .. أني كان لون ذلك النصر والعون ، ماديا كان أم معنويا ، وليس ذلك بعسير على الله سبحانه ، وليس من المستحيل عليه ، وان تشككت به بعض العقول المعاصرة ، لان هذا الشك المرير الذي تحياه بعض النفوس ـ اليوم ـ ما هو الا نتيجة لجدب النفوس من الايمان بالله سبحانه ، فلو آمنت النفوس بالله وقدّر الناس ربهم حق قدره ، لعلموا مدى قدرته وأبعاد حكمته وأطار علمه ، ولكن الجدب الروحي والفكري هو الذي يملي الظنون وإنكار كل شيء لايخضع للحس .

أجل امتدت يد السماء الكريمة لتشارك خديجة في مراسيم ولادتها لفاطمة ، وفعلا دخلت على خديجة نساء" سمر طوال كأنهن من نساء قريش ولسن منهن ، وانما جئن من خارج هذا العالم المحسوس ، جئن من العالم الذي حجبت أبصارنا عن رؤيته ، جئن من عالم الآخرة ليلين

من بنت خويلد كما تلي النساء من النساء أثناء الولادة .

وتتحفنا روايات التأريخ الاسلامي : أن النساء اللائي زرن خديجة هن : حواء وآسيا بنت مزاحم وكلثم أخت موسى ومريم بنت عمران [1] .

وتضع خديجة ابنتها الزهراء ، فيذاع النبأ ، وتردد أصداؤه في كل أفق ليبلغ كل مجاهد من أتباع محمد (ص) ....

ولدت فاطمة المباركة في وقت كانت أمها تنتظر مولودتها بفارغ صبر ولهفة شوق لتميط عنها الوحشة التي فرضتها عليها قريش .

وكان لهذا النبأ صداه العميق في النفوس المجاهدة الصابرة في المعترك وفي جميع الجبهات التي تملكها دعوة الله في مكة ، وسرى النبأ الى القائد محمد (ص) فأشرق وجهه بالبشر وتهلل فرحا وسرورا ، وأسرع الى خديجة ليبارك لها في مولودتها المباركة ، وكان أول بادرة فاه بها (ص) : أن دعاها بفاطمة ولقبها بالزهراء ...

وراحت تتغذى بلبن أمها (السيدة خديجة) مشوبا بالهداية ، فراحت تنمو روحيا وفكريا كما تنمو جسميا وفسيولوجيا ، وكان اهتمام محمد بها منقطع النظير ، ولكن هذا الاهتمام لم يكن مجرد اهتمام عاطفي تفرضه عاطفة الابوة فحسب بل كان هذا الاهتمام مقصودا وهادفا ، حيث رأى الرسول (ص) في ولادة فاطمة ولادة الامداد الرسالي لان فاطمة ستكون وعلي (ع) مدرسة يتخرج في احضانها قادة الامة المخلصين المتمثلين بأئمة أهل بيت الرسالة المعصومين ــ الائمة الاثني عشر ــ عليهم السلام ــ .

وهنا تتجلى حقيقة أخرى : هي أن اليد التي صنعت من فاطمة أماً للقادة المعصومين هي نفسها اليد التي صنعت من علي بن أبي طالب

(١) ذخائر العقبى : محب الدين الطبري .

عليه السلام أبا وزعيما لهم حيث كان الرسول (ص) قدر ربى علياً في بيته يوم أملق عمه ، فلم يكن اختياره لعلي قد صدر كما تصدر الاعمال العفوية وانما كان ذلك وفق تصميم غيبي رصين لكي تكون بيئة علي هي نفسها بيئة فاطمة .. ولكي يكون التوجيه واحدا والتربية واحدة ، ولكي ينشيء علي وفاطمة ــ بعد زمن ــ مدرسة الامامة لتكون الامداد الرسالي لرسالة محمد (ص) وفقا للارادة الالهية المرسومة .

ونحن لانثق ــ مطلقا ــ بالاباطيل التي تدعي أن محمدا قد ربى علياً لمجرد صدفة غير مقصودة ، بل إننا نرى في هذه الاقوال حطا من شخصية الرسول المعصوم (ص) لان أهل المذاهب الاجتماعية الهابطة إنما يتصرفون في حياتهم تصرفا هادفا في شتى مجالات نشاطهم ، ففي سلوكهم وفي علاقاتهم مع الآخرين ، كل ذلك بغية إنجاح مذاهبهم وتثبيت دعائمها ، فكيف بمن اختاره الله سبحانه لحمل الرسالة الخاتمة للعالمين : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . فهل يسير في حياته طبقا للصدف والظروف ؟ نحن لانرتضي ذلك أبدا ، بل إن عقيدتنا لاتسمح لنا بترديد هذه النغمات على الاطلاق ، فضلا عن الاعتقاد بها .

وقد أثبتت الادلة التأريخية القاطعة : أن محمدا القائد (ص) كان يخطط لإنجاح دعوته مالم يستطع عباقرة القرن العشرين من الاهتداء لبعضها ، فهل يعجز ــ ياترى ــ عن التفكير في تبني ابن عمه علي بن أبي طالب ، وانشائه إنشاء روحيا وفكريا بعيدا عن المصادفات والظروف ، وطبقا لمصلحة إلهية محتومة ؟ .

وترعرعت فاطمة في بيت الرسالة المقدسة حتى نبت لحمها على الهدى وجرى مع دمها شعاع الايمان لكي تشع على الدنيا أنوار الهداية بعد أبيها رسول الله (ص) عن طريق القادة الذين يتخرجون في

مدرستها ـ مدرسة الوحي والايمان ـ .

وهكذا آن لفاطمة أن تتلقى تعاليم الوحي تلقي تنفيذ وتمثيل على فكرها وسلوكها وكل ألوان نشاطاتها .

وهنا يأتي دور المؤرخين لسيرة الصديقة الزهراء (ع) فتتضارب رواياتهم في تأريخ ميلادها الميمون ، فقد ذهب اكثر مؤرخي الشيعة الامامية الى أنها ولدت بعد بعثة أبيها بخمس سنين (وهو المشهور) . ويذهب البعض أنها ولدت قبل البعثة بخمس سنين وقريش تبني البيت، وأنا ارجح ما يذهب اليه القائلون بالرأي الاول ، وعلى هذا الاساس جرى حديثي عن حياتها (ع) .

***

في معسكر الأيمان

ويدلهم الخطب ويحمى الوطيس بين معسكر الايمان الفتيّ ومعسكر الضلال بجبروته وكبريائه ، وقد فشل المعسكر الوثني في تنفيذ شعار الابادة الذي حمل لواءه أبو جهل وأبو لهب ومن يدور في فلكهما بغية خنق الدعوة في مهدها ، فالرسول (ص) وفقا لتسديده من السماء فوّت عليهم الفرصة بمخطط جديد نفذه بسرية وفورية ، حيث أرسل حملة من أصحابه بقيادة جعفر بن أبي طالب الى بلاد الحبشة التي يمتاز زعيمها (النجاشي) بحسن أخلاقه ، فضلا عن اعتناقه دين النصرانية ، وقد بلغ المهاجرون الى الحبشة نيفا وثمانين مهاجرا ، وقد عاملهم النجاشي معاملة طيبة مما جعل قريشا تهتم لهذا الامر الذي أقضّ مضجعها ، فأرسلت عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد المخزومي يحملان الهدايا الى النجاشي ، وفور وصولهما أعلنا للنجاشي عما قدما عليه فقالا : « سفهاء من قومنا خرجوا عن ديننا ، وضللوا أمواتنا ، وعابوا آلهتنا ، وان تركناهم ورأيهم لم نأمن أن يفسدوا دينك » .

وبعث النجاشي وراء جعفر ليطلع على حقيقة ما سمعه بل وفوجيء به فكان ردّ جعفر حاسما ، رد كيدهم الى نحورهم حيث صرح بقوله : « ان هؤلاء على شر دين يعبدون الحجارة ، ويصلون للاصنام ، ويقطعون الارحام ، ويستعملون الظلم ، ويستحلون المحارم ، وان الله قد بعث فينا نبيا من أعظمنا قدرا وأشرفنا سررا وأصدقنا لهجة وأعزنا بيتا فأمر عن الله بترك عبادة الاوثان ، واجتناب المظالم ، والمحارم ، والعمل بالحق ، والعبادة له وحده » .

وبهذا الاعلان الصريح الذي كشف فيه جعفر عن سوءة قريش ، اهتزت مشاعر النجاشي فرد عليهم هديتهم وعنفهم بقوله : « أأدفع اليكم قوما في جواري على دين الحق ، وأنتم على دين الباطل ؟ » .

ولكن النجاشي لم يكتف بما سمعه من جعفر بن أبي طالب (ع) عن الدين الجديد ، فسأله أن يقرأ عليه شيئا مما أنزل على محمد (ص). وهنا تبرز الحكمة بكل ملامحها في شخصية الداعية جعفر حيث يتلو عليهم سورة مريم ، نظرا لنصرانية النجاشي ، وما أن انتهى من تلاوة السورة حتى أبكى النجاشي ومن حضر عنده . ولما أحس عمرو وعمارة — مبعوثا قريش — بأفلات الزمام من أيديهما حاولا إغراء النجاشي بالمسلمين المهاجرين فقالا : « ان هؤلاء يزعمون : أن المسيح عبد مملوك » مما جعل النجاشي يشمئز لذلك ، فأتصل بجعفر المخلص لله ورسوله ليعلن له ما أدعاه وفد قريش ، فطمأنه جعفر بقوله : « ان المسيح عندنا روح الله وكلمته ألقاها الى مريم » ، فيطمئن النجاشي بعدها وتنتهي المؤامرة التي دبرها قادة المعسكر الوثني للفتك بالمسلمين وكانت عاقبة أمرهم خسرا .

واجتمع زعماء الشرك وأقروا مشروعا جديدا ليتركز على صاحب الرسالة ذاته ، ولكنه مشروع دعائي حيث كرست قوى الشرك كل مافي جعبتها من وسائل وإمكانيات مادية ومعنوية — للحط من قيمة الرسالة بتوهين صاحب الرسالة نفسه عن طريق حملة دعائية عمت اكثر الاحياء في الجزيرة العربية ، وكانت هذه الحملة تحمل نغمات شتى ، فقد ادعى مروجوها : ان محمدا كذاب ، فشاعر ، فمجنون وساحر .

ولكن هذه النغمات — مع ما صحبها من رصيد دعائي ضخم — لم تؤد فاعليتها بل لم تحقق أي غرض على الاطلاق مما جعل (دار

الندوة) تفتتح أبوابها لتتلقى اجتماعا لاقطاب الشرك قرروا بعد مداولات ومشاورات : أن يقتلوا محمدا ذاته ، ولكنهم فوجئوا بعقبة كأداء تحول دون تحقيقهم لهدفهم الدنيء ، إذ وقف المؤمن الوفي أبو طالب موقفه الصلب فأعلن انهم غير قادرين على ذلك اطلاقا ـ :

والله لن يصلوا اليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا

ولما بلغ قريش رد الفعل الذي أصاب سيد العرب أبا طالب ، تنازلت عن رأيها ، وأقرت مشروعا جديدا يقضي بمقاطعة قريش لمحمد وبني هاشم ومن يدور في فلكهم ، وقد دونوا بنود المقاطعة التي تقضي بعدم مبايعة أو مناكحة أو معاملة بني هاشم على الاطلاق ، وختموا القرار بثمانين خاتما وعلقوها في الكعبة المشرفة وحوصر بنو هاشم في شعب أبي طالب ، وذاقوا لذلك كل عسر ومشقة وهوان .

وهنا يتجلى دور خديجة التي أوقفت كل طاقاتها في سبيل الدعوة، فأنفقت كل ثروتها في تلك الايام العصيبة التي مرّ بها محمد والاسلام، واستمرت المقاطعة ثلاث سنين حيث أبطل مفعولها يوم أعلن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : أن الارضة قد أكلت صحيفتهم ، وبعد أن أخبرهم ابو طالب بما نبأ به ابن اخيه وقعت فتنة بين قوى الشرك كانت نتيجتها في صالح الرسالة المقدسة ، حيث أسلم عدد كبير من الناس ، فضلا عن أن المقاطعة أدت الى تصلب عقيدة بني هاشم وأتباعهم من المؤمنين .

وفي هذه اللحظات العصيبة من حياة الاسلام ورسوله أعلن بيت الرسالة نبأ افتقاد المجاهدة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد حيث أختطفها ريب المنون ، فتكدرت حياة محمد لموتها ، وبعد مضي ثلاثة أيام على فقدها فوجيء الاسلام بفقد المحامي والمدافع الاول عنه في أقسى ظروفه

ابي طالب الرجل المؤمن الصلب الذي وقف المواقف البطولية في وجه الشرك وأقطابه ، وبفقدأبي طالب استولى الحزن على رسول الله (ص). ووقف على عمه ليلقي نظرة الفراق ــ وهو يقول بقلب مزقه الالم : « ياعم ربيت صغيرا ، وكفلت يتيما ، ونصرت كبيرا ، فجزاك الله عني خيرا » .

ويستولي الحزن على رسول الله (ص) لفقد أبي طالب وخديجة مما جعله يقول : « اجتمعت على هذه الأمة في هذه الايام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعا ؟ » .

وهذه الكلمة ترينا أن وراءها قلبا قد هده الاسى وأخذ مأخذه فيه ، وقد تنجلي هذه الحقيقة اذا قلنا : أن رسول الله (ص) قد أطلق على العام الذي فقد فيه أبا طالب وخديجة ، « عام الحزن » .

ويزداد ألم محمد (ص) ويتأصل في نفسه عندما تتعلق بضعته فاطمة بثيابه اذ استولى الاسى على مشاعرها فتتعلق بأبيها باكية وهي تقول : « أبي ــ أبي ، أين أمي ، اين امي ؟ » .

فيبكي الرسول الكريم لبكائها وينغص عيشه ، فتشترك السماء معه في المأساة وينزل جبريل (ع) فيقول : « يا محمد ، قل لفاطمة : ان الله تعالى ــ بنى لامك بيتا في الجنة من قصب لانصب فيه ولا صخب » . تلطيفا لمشاعرها وتخفيفا لعنفوان حزنها والآمها .

ويشمت الاعداء بمحمدوتشتد مؤامراتهم للنيل منه بعد ما وثقوا من قلة ناصره بعد أبي طالب ، الدرع الواقي للرسالة ، وأحس بالخطر المحدق به وبرسالته ، فخرج من مكة يلتمس الانصار لا يوائه وحمايته من القتل ، وراح يتصل بالقبائل خارج مكة يفاوض أهلها وأشرافها بغية منعه من القتل قائلا : « لا أكره أحدا منكم ، إنما أريد أن تمنعوني

مما يراد بي من القتل حتى ابلغ رسالات ربي » .

ولكن أحدا من قومه لم يجره ، ففكر في الخروج الى الطائف حيث تقيم قبيلة ثقيف الكبيرة علّه يجد مجالا لبث دعوته ، وقابل زعماء القبيلة ، ولكنهم ردّوه ردا قاسيا يتسّم بطابع السخرية والجفاء، ولم يكتف هؤلاء بالاسلوب السلمي الجاف ، بل عمدوا الى استعمال طريقة العنف لصاحب الدعوة حيث هاجم صبيانهم محمدا (ص) بالحجارة حتى أدموه فعجز حتى عن مواصلة سيرة فاستند الى جدار بستان في خارج مدينة الطائف ، وقد وصف حالته بقوله : « ما كنت أرفع قدما ولا أضعها الا على حجر . . . » ويعود محمد (ص) الى مكة في وقت كانت قريش قد اجتمعت في دار الندوة ، وهي تستعرض الظرف الذي تعيشه الدعوة بعد وفاة أبي طالب . .

وبعد مشاورات ومحاولات ومفاوضات وجدت قريش أن الظرف ملائم لتنفيذ مشروع يقضي بقتل محمد (ص) بعد أن خلالهم الجو من معارض صلب كأبي طالب ، ولكنهم اختلفوا في الصيغة التي سيتم بها مشروع القتل الدنيء .

وبعد مناقشة آراء عديدة طرحها المؤتمرون كان في طليعتها رأي يقضي بأعتقال محمد (ص) في بيته ويلقى اليه طعامه حتى يتفرق عنه اتباعه بعد حين ثم يعجل بقتله ، وقد نوقش هـذا الرأي ولم يقره المؤتمرون في دار الندوة .

وأخيرا عرض أبو جهل — رأس الشرك يومذاك — رأيا يقضي بقتل محمد ولكن عن طريق فورية في التنفيذ أولا ، وأن يجتمع على قتله من كل قبيلة شاب قوي ، لكي لاتقوى بنو هاشم ثم على مقاومة القبائل العربية جميعا ، فينهالوا عليه بضربة رجل واحد مما يجعل دمه

يذهب هدرا ، . .

وصفق المؤتمرون لرأي قطب الشرك والضلال أبي جهل وأقرّوه بالاجماع وأنبأت السماء محمدا (ص) بمقررات دار الندوة ، وصدرت الارادة الالهية بهجرة محمد الى يثرب ، شريطة أن يدع عليا (ع) على فراشه ليؤدي عنه أماناته ويلحق به بعد زمن ، حاملا معه بضعة الرسول فاطمة الزهراء (ع) وغيرها من النساء الهاشميات . وخرج محمد (ص) تحت جنح الظلام وأسرع المتآمرون لالقاء القبض عليه في بيته ولكنهم فوجئوا بعلي بن أبي طالب (ع) يخرج اليهم وينبئهم أن محمدا (ص) قد خرج عن مكة بعد أن رغبوا هم بخروجه عنها .

وما أن نبأهم علي بخروج محمد عن مكة الا وقد خيم عليهم الوجوم والدهشة ، فطلبوه في الجبال والوديان ولكنهم لم يقعوا على خبره ، حتى بلغوا (جبل ثور) وقد أعياهم الطلب فوقفوا على باب غار فيه يتلاومون ، وظن بعضهم أن محمدا قد اختفى في الغار ذاته . وبعد قليل بحث وجدوا أن حمامة قد باضت في عشها عند باب الغار ، فضلا عن أن عنكبوتا قد بنى بيته على باب الغار نفسه مما جعلهم يستسلمون لليأس ، فعادوا بعدها خائبين .

وأختفى محمد (ص) فترة في داخل الغار ، هاجر بعدها الى يثرب وكانت هجرته (ص) بعد مضي ثلاث عشرة سنة من مبعثه المبارك .

دخل محمد يثرب ، فأستقبلته عن بكرة أبيها ، تهتف بحياته وترتل الاناشيد الترحيبية الندية ــ :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

أيهـا المبعوث فينا جئت بالامـر المطـاع

وأحتضنت يثرب الدعوة ، لتكون مسرحا ومنطلقا لها لتشع على العالم نور الهداية والفضيلة ، وبهجرة الرسول القائد الى يثرب دخلت الدعوة مرحلة جديدة من عمرها حيث أقام الرسول دولته الكريمة التي راحت تحمل القرآن في يد والسيف في يد أخرى ، ذودا عن الرسالة ونشرا لتعليماتها المنقذة ، وقد آن للرسالة أن تمرغ قوى الضلال في الوحل ، وقد آن لهذا الدين أن يظهره الله ولو كره المشركون .

* * *

في الطريق إلى يثرب

مركز القيادة الاسلامية المتمثلة بالقائد محمد (ص) قد حل في أرض جديدة هي يثرب ، وهي بدورها قد احتضنت محمدا (ص) ، وهو كذلك قد وجد فيها المنطلق الحيوي لبث تعاليم السماء الى الآفاق شرقا وغربا ، ومكة ــ الآن ــ قد أختفى فيها صوت محمد (ص) ، فهو لم يُرَ في شارع يدعو ، ولا في واد يعدو يبشر ، ولا في سوق يندد بالاوثان ، ولا في ناد يوجه أتباعه ويدلهم على معالم رسالته المباركة ، ولا يرى محمد (ص) حتى في بيته ، وقريش تأكدت من هجرته الى يثرب بعد أن فشل المأجورون في قتله والوحي هو الآخر قد انتقل الى يثرب ليواصل حلقات الرسالة الإلهية المتسلسلة ، وقريش امتلأت حقدا يصحبه طابع من الخوف بعد أن رأت أن احياء مكة قد اختفت عنها نشاطات الصفوة المؤمنة ، وأنها قد هاجرت الى أرض جديدة اكثر قدرة على احتضان الدعوة المباركة ، بعيدة عن ضغط قريش ومكائدها وسلطانها ولم يبق في مكة الا علي بن أبي طالب (ع) ونفر من النساء في طليعتهن فاطمة الزهراء بنت محمد (ص) وبعض من عجزة المؤمنين وشيوخهم ، وعليٌّ هو الآخر عازم على الرحيل ليحمل بقايا الدعاة الصابرين الى مركز قيادتهم ، ولكنه غير فاعل ذلك مالم يؤد أمانات أخيه محمد (ص) الذي اعتاد الناس أن يودعوا حاجاتهم لديه ، وسموه بالامين .

ويسرع علي (ع) بتنفيذ هذه المهمة ، وبعد مضي ثلاثة أيام على هجرة القائد محمد (ص) يعلن علي (ع) نبأ رحيله الى يثرب ،

ويهيىء هوادج لحمل النساء الهاشميات .

ويحمل : فاطمة الزهراء (ع) وأمه فاطمة بنت أسد وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب وفاطمة بنت حمزة ، وغيرهن ، ويودع مكة المكرمة ، ونفسه ممتلئة عزة وكبرياء على طواغيت وأوضار الجاهلية ، وهو غير آبه بما وراءه من عصاة الخالق مهما دبروا ومهما خططوا لإيقاف الزحف المقدس والمسدد بقوة السماء .

ولكن قريشا فزعت لهذا الحدث الجديد ، وحملها حنقها الشديد على مواجهة الموقف بعملية عسكرية لتدرك ثأرها من محمد وأتباعه بقتلها عليا (ع) لانها رأت في خروج علي (ع) والتحاقه بابن عمه في يثرب على مسمع ومرأى منها تأكيدا لاهانتها ، وهي بالامس قد ذاقت مرارة فشل ذريع بعد أن فشلت المؤامرة الاثيمة التي صمم أدوارها صناديدها وكبراؤها ، فلابد ــ والحالة هذه ــ أن تقوم بعملية صارمة لغسل العار الذي لحقها على يد محمد (ص) ، ولكن ما هو السبيل الناجع الذي تسلكه قريش لتدرك ثأرها من محمد ... ؟

ها هي قافلة علي والزهراء ــ عليهما السلام ــ ومن معهم تبدو من بعيد ، وهي تحث السير قاصدة يثرب ...

وما هي الاساعات سوف تختفي القافلة المهاجرة ، تاركة خلفها عارا وشنارا جديدا يلحق صناديد قريش وأسياد العرب ــ يومذاك ــ .

كل هذه الاوهام راحت تدور في ذهنية الزعماء من قريش ، فحملتهم على وضع حل حاسم للحادث الجديد قبل أن يفلت الزمام من أيديهم ــ كليا ــ .

واجتمعت الكلمة بعد مناقشات واجتماعات عاجلة فرضتها الحادثة الجديدة ، وانفضّ الجمع باعلان قرار يقضي بإلقاء القبض على علي

عليه السلام وقافلته ومنعها من الهجرة .

ويسرع ثمانية فرسان يقودهم مولى لابي جهل ، وتسرع خيولهم لقافلة المجاهدين ، وبعد أن ادركوها واجه قائدهم عليا (ع) بكلمات نابية نابعة من صميم الحضارة الجاهلية العفنة ، ويسرع الى ضرب علي (ع) ولكن عليا يميل عن ضربته ويصده بضربة لن يفلت منها فيفارق الحياة بعدها . وما أن يرى الغزاة المتآمرون هذا الحدث الا ويعمهم الجزع والخوف ، فيلوذون بالفرار من الموقف الحاسم يجرون خلفهم أذيال الهزيمة لقريش لتضيفها الى سجل مخازيها وعارها كما اعتادت .

ويستولي على قريش الذهول وتعود الى أصنامها الواهية تسألها النصر على محمد ، ويقيني أن قريشا ــ فضلا عن حقدها على محمد وأتباعه ــ أرادت من محاولتها لصد علي (ع) عن الهجرة : إخضاع محمد واجباره على العودة بعد أن يحاط علما بعملية إلقاء القبض على أعز الناس لديه (علي وفاطمة) ولكن مساعيها أحبطت بتسديد من الله على يد علي (ع) المعروف برباطة الجأش وصلابة اليقين ..

وتستمر القافلة يحدوها النصر ، ويهزها الشوق الى قائدها محمد (ص) وتتغنى بآيات الله الكريمة .

وما هي الا أيام حتى يستقبل محمد (ص) ومعسكره الفتي الوفد المهاجر بابتسامات ملؤها الاكبار والاجلال ، والمودة .

ولم تكن الهجرة ــ هجرة علي وفاطمة والوفد المرافق لهما ــ مجرد هجرة ، وانما صحبتها عواطف كريمة ومواقف نبيلة كان في طليعتها اهتمام علي (ع) بالنسوة اللائي رافقنه ، فكان يسير بهن سيرا وئيدا خشية تعريضهن لنوع من المشقة ، ويتفقدهن بين آونة وأخرى

للاطلاع على حاجاتهن ومتطلباتهن ، وان شئن سبيلا للراحة بذل لهن من وسائل الراحة من إيقاف للمسير أو تهيئة لطعام أو شراب .

وان دلت هذه المساعي الحميدة التي يزاولها أمير المؤمنين (ع) مع وفده المهاجر من النسوة على شيء ، فانما تدل على مدى اهتمام الاسلام الحنيف بالعنصر النسائي من المجموعة البشرية ، وكيف يسهر الرجل على راحتهن وتوفير السعادة لهن ، وعلي بن أبي طالب (ع) أولى من غيره بتطبيق معالم الرسالة الاسلامية المقدسة ، سيما وهو قد نبت لحمه وشحمه على أساس منهج الله سبحانه ، بل انه بمثابة الصورة التجسيدية لكل معالم التشريع الاسلامي الرصين ، ولذا فقد دعاه الرسول (ص) بالقرآن الناطق لانه ــ لعمر الحق ــ صورة حية متحركة للقرآن الكريم .

وتصل قافلة المجاهدين ، وهي آخر موكب من مواكب النور المتجهة صوب يثرب لتطل على العالم ــ فيما بعد ــ دولة وحضارة تمديدها لانتشال هذا الكوكب من ظلامات الجاهلية وأدناسها .

بیت جدید

التحقت مواكب المهاجرين بمقر القيادة الجديد ، واطمأنت بها الدار الجديدة ، ولكن لا ليميلوا الى الدعة والخمول ، ولكن ليواجهوا مسؤوليات جد جسيمة ، مسؤولية بنـاء الدولة ونشر المبدأ وتركيز العقيدة والدفاع عن الرسالة و ٠٠ و ٠٠ ،

وكانت فاطمة (ع) قد عاشت هذه الاحداث العظيمة من تأريخ الدعوة في مراحلها ، وخاصة هذه المرحلة الجديدة وهي على عتبة شبابها ، وقد نضجت جسميا وروحيا وفكريا ٠

وأحس صحابة الرسول (ص) بقيمة فاطمة لدى أبيها وعلموا أنها بلغت مرحلة النضج بكل أبعادها فتباروا لخطبتها من أبيها طلبا للشرف ورغبة في الكرامة ، وحرصا على التقرب الى الرسول (ص) ، وكان لابد لكبار الصحابة أن يتقدموا لطلبها من رسول الله (ص) وفي طليعتهم أبو بكر وعمر وغيرهما ــ وكان الرسول (ص) يعرض في كل مرة بوجهه عنهم بعد أن يتصل بفاطمة (ع) نفسها ، فتظهر عدم رغبتها ورفضها لعرض الخطبة ، والرسول (ص) حين يتصل بالزهراء في هذه القضايا ، لا لانه لايعلم من يستحق ان يكون لها كفوءاً ، ولكن روح الشريعة الاسلامية هي التي تفرض على الآباء أن لايبتوا في موضوع زواج بناتهم وأبنائهم دون الاطلاع على مدى رغبتهم أو رفضهم للفتيات ان كانوا رجالا ، أو رغبتهن أو رفضهن فيما لو كنّ نساءً ٠

والرسول (ص) انما يعكس لنا واقع الشريعة المقدسة ومعين

الرسالة الالهية القويمة الذي يفرض ذلك ويرسمه للمجموعة الانسانية لخلق الاسرة الصالحة المتحابة المتعانقة القلوب والعواطف لكي يخلق المجتمع الصالح المتين المتكاتف كالبنيان المرصوص دون أن تلعب به الاهواء والمصالح المقطوعة الصلة بالعلائق الوشيجة ، تخلله علائق الرحمة والإلفة والوفاء . .

أجل يدخل محمد على بضعته فيحدثها عن الخاطب لكي يؤدي واجبه نحوها ولكي ينقل رأيها ــ بأمانة ــ لخاطبها ولكي يعلمنا دروسا لبناء الاسرة الكريمة المتحابة .

وأستمر الرسول (ص) يعرض بوجهه عمن يخطب ابنته الزهراء عليها السلام ويرده بقوله : « انتظرْ فيها أمر القضاء » (١) مما جعل اليأس يستبد بأصحاب محمد (ص) . فأجتمع بعضهم يوما في مسجد الرسول (ص) يتذاكرون في شأن الزهراء (ع) ورفض محمد (ص) تزويجهم بها .

وكان في طليعة المؤتمرين أبو بكر وعمر وسعد بن معاذ الانصاري، وبعد مداولات عديدة قرّ رأيهم على الاتصال بعلي بن أبي طالب (ع) فيذكروا له أمر فاطمة .

وبحث هؤلاء النفر من المسلمين عن علي (ع) وأخيرا وجدوه ينضح ماءً لسقي نخيل لرجل من الانصار لقاء أجرة يتقاضاها ، وأحس علي (ع) أن مع القوم نبأ جديدا يحملونه اليه حيث يتساءل عما وراءهم .

وبعد أن حيوه يتقدم أبو بكر (رض) فيفضي بما عندهم من نبأ

---

(١) ذخائر العقبى .

جديد حيث يقول : أن أهل الشرف والقدم في الاسلام قد قدموا على رسول الله (ص) ليخطبوا بضعته فاطمة (ع) ، ولكنه قد ردهم جميعا وأعرض عنهم ، وقد رأينا ان نلفت نظرك الى ذلك ، فحبذا لو عرضت نفسك على رسول الله (ص) بشأن خطبتها منه [1] .

ويجد عليٌّ (ع) هوىً في نفسه لهذا الحديث ، ويفرغ من عمله فيتجه الى بيته لكي يرتدي ملابس أخرى ، وفي هذه اللحظات المباركة يكون الوحي قد زار محمدا (ص) قبل زيارة علي (ع) له يأمره بتزويج الزهراء من علي بقوله : « يامحمد ان الله تعالى يقرأ عليك السلام ويقول لك اني قد زوجت فاطمة ابنتك من علي بن أبي طالب في الملأ الاعلى ، فزوجها منه في الارض » [2] .

ويزور علي محمدا في بيته اذ كان (ص) في حجرة أم سلمة ــ الامرأة الصالحة ــ ويطرق علي الباب على الرسول (ص) فيخفق قلب محمد (ص) لذلك ويتهلل فرحا ، فيقول لام سلمة : « هذا رجل يحبه الله ورسوله ، ويحبهما » .

ولكن أم سلمة تطلب من محمد (ص) أن يعلمها بأسمه لابصفاته فيقول لها : « هذا أخي وابن عمي ، وأحب الخلق اليّ » .

وتعلم أم سلمة : أنه علي (ع) حبيب محمد (ص) وموضع سره واكرم الناس لديه ، وتبادر الى فتح الباب ، فتفتحه وتعود لكي تختفي في خدرها ، وعلي (ع) ينتظر قليلا حتى يتأكد من دخولها في خدرها ، فيدخل بيت أخيه محمد (ص) فيحييه بتحية الاسلام ويرد الرسول عليه بأحسن منها ويوسع محمد (ص) لزائره العزيز فيجلس بجنبه ، ولكن تقاسيم وجهه تحمل نبأ جديدا لمحمد (ص) حيث أن

(١) المناقب للخوارزمي (٢) ذخائر العقبى للطبري .

جلوسه غير معتاد ، فالصمت يستولي عليه هذه المرة ، ويأخذ الحياء مأخذه منه ، وقد أطرق برأسه الى الارض فأحس محمد (ص) أن وراء سلوك علي ــ هذا ــ حاجة لايقوى على الافضاء بها ، . ويخاطب محمد (ص) عليا (ع) بقوله : « اني أرى انك اتيت لحاجة ، فقل حاجتك ، وابد ما في نفسك ، وكل حاجة لك عندي مقضية » (١) .

وحين يستمع علي (ع) لهذا الحديث ، حديث الامل يدخل السرور قلبه ويرفع رأسه لكي يطرح عنه رداء الصمت ، فيخطب من محمد (ص) ابنته مفتتحا حديثه عن أيام طفولته وفتوته التي قضاها مع محمد (ص) حيث أوضح له أنه قد عاش في كنفه وتربى في بيته يوم أملق أبوه ــ ابو طالب ــ وقد ذاق طعم الحنان والعاطفة الفياضة بالمودة والاخلاص ، وأنه قد تربى منذ نعومة اظفاره في كنفه وتحت ظلاله الوارفة ، وأخيرا هداه الله به الى الاسلام فحمل لواءه ودافع عن بيضته ، وصارع قوى الضلال بغية نصره واعزازه .

واستطرد علي (ع) فأفضى لمحمد (ص) أنه يرغب ان يكون له بيت وزوجة يسكن اليها كما يرغب ان يخطب فاطمة منه ، ويسمع محمد (ص) حديث أبن عمه علي (ع) فيتهلل وجهه فرحا وتمتلىء نفسه سرورا ، ولكنه لابد ان يتصل بفاطمة (ع) فيحدثها عن خطيبها الجديد ــ كما أمر الشرع المقدس ــ .

فيدخل على بضعته الطاهرة (ع) ويقول لها : « ان علي بن أبي طالب ممن قد عرفت قرابته وفضله واسلامه » واستطرد حديثه قائلا : « وقد ذكر من أمرك شيئا ، فما ترين ؟ » .

وهنا يستولي الحياء على الصديقة فاطمة (ع) فلم تستطع أن

---

(١) الدمعة الساكبة .

تنطق بكلمة واحدة ، ويطيل محمد (ص) النظر في وجهها فلم يرَ كراهة قد بدت فيه ، ولما طال سكوتها هتف الرسول (ص) من أعماق قلبه الطاهر متجها نحو علي (ع) وهو يقول : « أالله اكبر ، سكوتها إقرارها » .

وقبل أن أواصل هـذا الحديث العـذب عن خطبة علي (ع) للصديقة الزهراء (ع) أود أن أشير الى نقطة حساسة أحتوى عليها حديث رسول الله (ص) الى الزهراء (ع) : « إنعلي بن أبي طالب ممن قد عرفت قرابته وفضله واسلامه » فأن الرسول (ص) حين يستعرض صفات علي للزهراء عليهمـا السلام يتوج صفاته بالاسلام فيقول : (واسلامه) وهذا القول انما صرح به الرسول (ص) ، لان من شروط تزويج المرء إسلامه ، وهذا ما نصت عليه الرسالة الاسلامية في قانون الاسرة وملابساتها كما في قول الرسول (ص) : « اذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه ، فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير » [1] .

والرسول (ص) حين يشرح لفاطمة (ع) صفات علي (ع) فليس ذلك لان فاطمة تجهل صفات علي ، وانما استهدف أن يلقن هذه الامة ـ بشكل عملي وواقعي ـ صورة الزواج الطبيعي الذي رسم الاسلام حدوده ووتد أركانه .

وعاد محمد (ص) من فاطمة (ع) لينقل لعلي نبأ قبولها بزواجه حيث تبسم في وجهه ، وقال : « يا أبا الحسن ، فهل معك شيء أزوجك به » . والرسول (ص) حين يطلب الى علي (ع) إحضار مهر لزواجه انما أراد بذلك أن يقرر حكما عاما هو الاهتمام بشؤون المرأة وتأكيد

---

(١) الاسرة المسلمة .

حقها في الحياة الزوجية .

يعرض الرسول (ص) على علي (ع) إحضار مهر لزواجه وسرعان ما يستجيب علي لعرض ابن عمه ، ويكشف النقاب عما يمتلكه ، فقد كان في حيازته : سيف ودرع وناضح ، وراح الرسول يحدثه بشأن ملكيته ، فقال : « أما سيفك فلا غنى بك عنه ، تجاهد به في سبيل الله وتقاتل به اعداء الله » وهذا يعني ان الرسول (ص) منعه عن بيعه لما له من قيمة لامثيل لها في إقامة صرح الاسلام الشامخ ، ثم تداولا في شأن الناضح ، ولكن الرسول (ص) اكد قيمته بقوله : « وناضحك تنضح به على نخلك واهلك وتحمل عليه رحلك في سفرك » فالناضح تتصل أهميته برزق الاسرة وحمل الاثقال سيما وان الناضح بعير ، والبعير فضلا عن أهميته في نقل الماء لسقي الزرع فانه يستعمل لحمل الاثقال أيام الظعن ، واتجهت النية لبيع الدرع لانه شيء ثانوي ، بل لانه لايبلغ درجة من الضرورة كما يبلغها السيف والناضح ، وكان الدرع قد منحه الرسول (ص) لعلي (ع) من غنائم بدر الكبرى .

وأسرع علي (ع) لبيع درعه ، فباعه بأربعمائة درهم ، وعاد بالدراهم لمحمد (ص) فقبض الرسول قبضة منها وناولها لبلال لكي يتولى دور اشتراء بعض اللوازم البسيطة من عطور ونحوه ، ويناول الرسول مبلغا من المال الى أم سلمة وسلمان (وأبي بكر) (على قول) ليشتروا أثاث العروسين ، ويسرع هؤلاء . وما هي الا فترة تنقضي حتى يعودوا وهم يحملون الاثاث والجهاز الذي يعتبر أروع أثاث عرفه التاريخ الانساني ، وليس عجيبا ولا بدعا من الامر أن نقول بروعته لان العروسين قد واسيا في زواجهما وأثاثهما أقل الناس مالا ، وأعلنا للبشرية ــ بأمتدادها التاريخي ــ : أنه ليس المهم ان يجمع الزوجان

الاثاث الفاخر والمتاع الجيد وما لذّ وطاب من الطعام والشراب ، وانما المهم أن تتعانق القلوب وتتآلف النفوس وتلتقي الارواح وتسود المحبة والالفة والحنان والرحمة وتتحقق وحدة المصير والهدف ، فينعكس فكرا واحدا وسلوكا واحداً وعاطفة واحدة ، وأحضر الاثاث وكان أهم ما فيه : (١)

١ ــ فراش من خيش مصر محشواً بالصوف .

٢ ــ وسادة من أدم حشوها من ليف النخيل .

٣ ــ عباءة خيبرية .

٤ ــ قربة للماء .

٥ ــ كيزان خزف .

٦ ــ جرتان من خزف .

٧ ــ مطهرة للماء .

٨ ــ ستر صوف رقيق .

٩ ــ سرير مشروط .

١٠ ــ حصير هجري .

١١ ــ مخضب من نحاس .

١٢ ــ قعب للبن .

١٣ ــ قميص .

١٤ ــ شن للماء .

١٥ ــ منخل .

١٦ ــ منشفة .

١٧ ــ رحى .

---

(١) الدمعة الساكبة .

١٨ ــ قدر من نحاس .

ورجع القوم يحملون هذا المتاع البسيط ، وقد أشترك أعاظم الصحابة في حمل هذا المتاع من السوق كبلال وعمار بن ياسر وأبي بكر وسلمان الفارسي وغيرهم ، ويقيني : أن الروايات حين تختلف في ذكر من قام بشراء المتاع انما جاء الاختلاف نتيجة لكثرة المشتركين في جلبه من السوق ، وأنا واثق من أن أم سلمة هي التي تولت مهمة ابتياعه من السوق ، واما الباقون فقد تولوا مهمة حمله من السوق ، وقيام أم سلمة بهذه المهمة أمر طبيعي لانها أعلم بحاجة الزوجة في البيت .

ولابد للرسول ــ بعد كل هذا ــ أن ينبىء المسلمين بخبر تزويج فاطمة من علي (ع) . ويقيني في ذلك ان الرسول (ص) حين يقوم بمهمة تبليغ المسلمين بهذا النبأ انما كان يستهدف أمرين لاثالث لهما :

١ ــ أراد ان يشرك جميع المسلمين بسرور أهل البيت (ع) بمناسبة زواج علي (ع) من فاطمة .

٢ ــ أراد ان يقطع خط الرجعة على المنافقين الذين ينشطون في مثل هذه المناسبات ، اذ أن لديهم خير فرصة لبث البلبلة في صفوف المسلمين ، لاسيما وأن فاطمة قد خطبها جلّ الصحابة ولكنه أعرض عنهم ، وقد زوجها من علي (ع) ، فلابد للمنافقين أن يكرسوا جهودهم لاثارة البلبلة علّهم يجدون ثغرة للتخريب في داخل المعسكر الاسلامي الفتي ، ولكن الرسول (ص) سد في وجوههم كل ثغرة فأبلغ المسلمين جميعا نبأ الزواج وعلله بأنه من أمر الله تعالى ، وقبل قيامه بهذه المهمة كلف (بلالا) ليوجه نداءً مستعجلا من المسجد النبوي الذي كان بمثابة الاذاعة التي يسمع الناس منها بيانات الله ورسوله ، ويذيع بلال النبأ فيجتمع المسلمون في المسجد الشريف فيلقي الرسول (ص) بيانه

بقوله : «معاشر المسلمين ان جبريل أتاني آنفا ، فأخبرني عن ربي عزوجل أنه جمع الملائكة عند البيت المعمور ، وأنه اشهدهم جميعا أنه زوج أمته فاطمة من عبده علي بن أبي طالب ، وأمرني ان ازوجه في الارض واشهدكم على ذلك ... » (١) .

وبإلقاء هذا البيان أعلن الرسول (ص) : ان زواج علي (ع) من فاطمة لم يكن بمثابة تحيّز من رسول الله (ص) لعلي (ع) وإنما جرى ذلك بأعلان من الله سبحانه وبأمره ، وهكذا اشترك المسلمون جميعا بهذا النبأ السار الذي أذاعه البشير محمد .

وبعد أن أعلن الرسول (ص) نبأ قبوله زواج علي من فاطمة (ع) جمع نفرا من صحابته ــ وبضمنهم علي (ع) ــ بغية تلاوة مراسيم العقد حيث قال : « الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع بسلطانه ، المرهوب من عذابه وسطوته ، النافذ أمره في سمائه وأرضه ، الذي خلق الخلق بقدرته ، وميّزهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه ، واكرمهم بنبيه محمد ، وإن الله ــ تبارك اسمه وتعالت عظمته ــ جعل المصاهرة سببا لاحقا وأمرا مفترضا وأنتج بها الارحام ، وانتظم بها الأنام ، وقال عز من قائل : (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) فأمر الله تعالى يجري الى قضائه ، وقضاؤه يجري الى قدره ، ولكل قدر أجل ، ولكل أجل كتاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت ويحكم ما يريد وعنده أم الكتاب » .

ثم أردف قائلا : « إن الله أمرني أن أزوج فاطمة بعلي بن ابي طالب ابن عمي ، فأشهدوا اني قد زوجته بها » ثم خص عليا بقوله : « ياعلي ان الله تبارك وتعالى أمرني أن أزوجك فاطمة ، واني قد

(١) المناقب للخوارزمي .

زوجتكها على أربع مائة مثقال فضة » (٢) .

فأجاب علي (ع) « قد رضيتها يارسول الله ، ورضيت بذلك عن الله الكريم ورسوله الكريم » . ثم ان عليا (ع) سجد لله شكرا .

وبعد أن استمع الحاضرون لهذه المراسيم ـ مراسيم العقد ـ المباركة عقّب الرسول (ص) بقوله ـ مخاطبا عليا (ع) : « جمع الله شملكما ، وأعز جدكما ، وأطاب نسلكما ، وجعل نسلكما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الامة ، وبارك الله لكما ، وبارك فيكما ، وأسعدكما ، وأخرج منكما الكثير الطيب » .

ثم راح يؤكد قيمتهما عنده أمام الحاضرين من صحابته فقال : « اللهم انهما مني وأنا منهما ، اللهم كما أذهبت عني الرجس وطهرتني ، فأذهب عنهما الرجس وطهرهما وطهر نسلهما . . . » .

وبالقاء هذه الكلمات العذبة في هذه المناسبة الجليلة انفض المجتمعون والسرور يعمهم والفرحة تملأ نفوسهم وقلوبهم .

---

(٢) المناقب للخوارزمي .

مراسيم الزواج

وبعد اعلان مراسيم العقد واصل الرسول (ص) جهوده في بناء دولته المباركة لكي تواجه شتى المؤامرات التي تحيطها من الداخل ومن الخارج ، فأخطار الداخل متمثلة بحركة النفاق النشطة التي تعمل داخل صفوف المعسكر القرآني ، وأخطار الخارج متمثلة بمكائد الوثنيين واليهود وحلفائهم .

واستمر علي (ع) هو الآخر يواجه مسؤولياته كقائد نشيط وعضو فعال من أعضاء كتلة الايمان الفتية ، وراح يجتمع برسول الله (ص) دون أن يجرأ على محادثته بشأن فاطمة (ع) نظرا لما يمتاز به من حياء يمنعه من التحدث أمام أخيه محمد (ص) في مثل هذه القضية حتى مضى على مراسيم العقد قرابة شهر واحد [1] .

واتصل عقيل بن أبي طالب بأخيه علي (ع) فحدثه بهذا الشأن وقد طالب بتعجيل زواجه بقوله : « فما بالك لاتسأل رسول الله (ص) أن يدخلها عليك فتقرّ أعيننا باجتماع شملكما .. » .

وحين يسأل عقيل عليا : هذا السؤال ، إنما مسألة اعتقادا منه بأن عليا (ع) هو الذي كان سببا في تأخير الزواج عن قصد ولكن عليا (ع) اوضح لاخيه عقيل أنه يرغب رغبة ملحة في الزواج الا أن حياءه من محمد (ص) يمنعه من التعجيل في الزواج .

وحين استمع عقيل لهذا الحديث ــ حديث علي (ع) الذي علل فيه سبب تأخير زواجه ، أتفق هو وعلي أن يزورا الرسول (ص) في

---

(١) المناقب للخوارزمي .

بيته ليحدثاه بما عندهما ، ويسرع عقيل وعلي الى الرسول (ص) وبيناهما في طريقهما اذ يلتقيان بأم ايمن بركة بنت ثعلبة الامرأة الصالحة، وتسألهما عما وراءهما فيطلعانها على ما جاء بهما ، وتقترح عليهما أن يعودا الى دارهما وهي بدورها ستتولى هذه المهمة حيث ستعرض هذا على أمهات المؤمنين فيحدثن ــ بدورهن ــ رسول الله (ص) .

وفعلا اتصلت أم ايمن بأم سلمة وبقية أزواج الرسول (ص) فعقدن اجتماعا في بيت عائشة ، حيث كان الرسول (ص) عندها ، وتكلمت أم سلمة بلسان أمهات المؤمنين بهذا الصدد حيث أوضحت للرسول (ص) أن عليا يرغب بالدخول على زوجته فاطمة ، ولكن حياءه منعه من مصارحتك بذلك فتعجب محمد (ص) مما سمع وأمر ام أيمن ان تنطلق الى علي (ع) فتحضره .

وتسرع أم أيمن لتحضر عليا (ع) ويطرق الباب فتغادر أمهات المؤمنين حجرة عائشة لينفرد محمد (ص) بعلي (ع) ودخل علي (ع) ــ الحجرة والحياء يأخذ مأخذه من نفسه ــ ويسلم على رسول (ص) ويجلس الى جنبه مطرقا برأسه الى الارض ، وافتتح الرسول (ص) الحديث بقوله : « أتحب ان تدخل عليك زوجتك ؟ » .

ويجيب علي (ع) بالايجاب والقبول فيرد محمد (ص) عليه : « حباً وكرامة ياأبا الحسن » .

ويأمر الرسول (ص) عليا (ع) أن يتهيأ للمهنئين ويقيم مأدبة يدعو المسلمين لحضورها . .

وأسرع علي (ع) الى بيته ، وفرشه رملا من البطحاء ، ثم عمد الى السوق فاتباع سمنا وتمرا وأقطا ، وسلمه لرسول الله (ص) الذي أحضر بدوره سفرة من أدم كي يصنع بيديه الشريفتين حيسا ، وأمر

الرسول (ص) بكبش فذبحت ، وهيأت [1] نساؤه خبزا كثيرا ، ثم أمر عليا (ع) أن يدعو من يرغب من المسلمين لحضور وليمته .

وهبّ علي (ع) الى المسجد النبوي الشريف ، فرأى جمعا غفيرا من المسلمين قد أجتمعوا فيه فأستحيى ان تكون دعوته وقفا على قوم دون قوم ، فدعا عامة الحاضرين لحضور وليمته ، وتوالت جموع المدعوين الى بيت الرسالة فكانوا يدخلون على رسول الله (ص) : عشرة عشرة ليتناولوا الطعام حتى شبع جميع الحاضرين من وليمة علي (ع) .

ثم دعا الرسول (ص) بصحاف ، فملئت وأرسلت الى الهاشميات وخصص صحفة لعلي والزهراء (ع) .

ومالت الشمس الى الغروب فدعا محمد (ص) أم سلمة وأمهات المؤمنين وغيرهن من النساء المؤمنات ليزففن فاطمة (ع) الى بيتها الجديد ، وزفت فاطمة الزهراء الى بيتها وسط عاصفة من التكبير والتهليل ، وتظاهرت جماعة من المسلمين يقدمهم رسول الله (ص) خلف فاطمة الزهراء (ع) يرفعون أصواتهم تهليلا وتكبيرا ، وكان لابد لمثل هذه المناسبة الكريمة ـ مناسبة الزفاف ـ من مراسيم خاصة الى جانب التهليل والتكبير ـ وفعلا استمعت النساء الى تلك المراسيم التي كان جلها رجزا وأناشيد ألقتها أمهات المؤمنين ، حيث تقدمت أم سلمة فألقت ارجوزة بهذه المناسبة :

سرن بعون الله جاراتي ... وأشكرنه في كل حالات
واذكرن ما انعم رب العلى ... من كشف مكروه وآفات
فقد هدانا بعد كفر وقد ... أنعشنا رب السماوات
وسرن مع خير نساء الورى ... تفدى بعمات وخالات

---

(١) المناقب للخوارزمي .

يابنت من فضله ذو العلى بالوحي منه والرسالات

ثم ألقت ارجوزتها عائشة فقالت :

يا نسوة أشرن بالمعاجر واذكرن مايحسن بالمحاضر
واذكرن رب الناس اذ يخصنا بدينه مع كل عبد شاكر
والحمد لله على افضاله والشكر لله العزيز القادر
سرن بها فالله أعلى ذكرها وخصها منه بطهر طاهر

ثم جاء دور حفصة وارتجزت تقول :

فاطمة خير نساء البشر ومن لها وجه كوجه القمر
فضلك الله على كل الورى بفضل من خص بآي الزمر
زوجك الله فتى فاضلا أعني عليا خير من في الحضر
فسرن جاراتي بها فانها كريمة بنت عظيم الخطر

وقد ألقت بعض المؤمنات منظومات أخرى ابتهاجا بهذه المناسبة الكريمة ، وكن يرددن في هذه المنظومات والاراجيز بعيدا عن الفوضى والانحلال الذي أعتاد عليه عصرنا الحاضر ، فخرج عن مثله وضوابطه وعقائده .

وبعد زفاف فاطمة (ع) الى بعلها علي (ع) جاء رسول الله (ص) مهنئا عليا (ع) بقوله : « بارك الله لك في ابنة رسول الله » .

ثم أن الرسول (ص) أخذ أناء ماء ، وتلا عليه شيئا من آيات الله الكريمة تبركا بها ، وأمر عليا (ع) ان يشرب منه قليلا ، وفعل مثل ذلك مع فاطمة (ع) ، ثم نضح منه شيئا على رأسيهما ووجهيهما .

ثم أن الرسول (ص) دعا نهما بقوله : « اللهم إنهما أحب الخلق اليّ ، أحبهما ، فبارك في ذريتهما ، واجعل عليهما منك حافظا ، واني أعيذهما بك وذريتهما من الشيطان الرجيم » .

ثم ودعهما وعاد الى بيته .

وكانت تلك الليلة التي تمّ فيها زواج علي من فاطمة (ع) نقطة انطلاق في حياة البيت الهاشمي المقدس ، ومرحلة جديدة من مراحل حياته ، لان في زواجهما انشئت المدرسة المباركة مدرسة الوحي والايمان التي ستخرج إمامة الارض وخلفاء الامة بعد محمد (ص) وقد آن لفاطمة ان تتولى مسؤولياتها الجسيمة كزوجة وفية وأم رؤوم ومدرسة للتربية ـ التربية الاسلامية بكل معالمها وأطرها التي رسمها خالق الوجود سبحانه وتعالى في كتابه الذي نزل على عبده محمد (ص).

وتتحدث أندية المسلمين عن زواج علي (ع) بفاطمة فتصفه هذه الاندية أنه اروع زواج عرفه المسلمون حيث شارك المسلمون جميعهم بيت الرسالة أفراحه وسروره .

فصرحت عائشة وام سلمة بهذا الشأن وهما تصفان هذه المناسبة الجليلة وقد جاء في حديثهما : « فما رأينا عرسا احسن من عرس فاطمة » .

كما أن الصحابي الكبير جابر بن عبد الله الانصاري صرح ـ مرة ـ ذاكرا زواج علي (ع) من فاطمة قائلا في مطلع حديثه : « حضرنا عرس علي (ع) فما رأيت عرسا كان أحسن منه » [1] وهكذا كان زواج علي (ع) قدوة اقتدى بها المسلمون حتى صارت اكثر مراسيمه سننا تتبع ودروبا تسلك .

وقد تم هذا الزواج المبارك وفاطمة قد ادركت التاسعة او الثانية عشرة من عمرها (على قول) وفي حدود السنة الثانية للهجرة .

---

(١) فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

العرس المبارك

وبعد أن تم زواج علي من الصديقة الزهراء ـ عليهما السلام ـ أصبح الاسلام والامة الاسلامية ينتظران بفارغ من الصبر غرسا مباركا جديدا يشكل الامداد الرسالي بعد محمد (ص) .

وتمضي الايام سريعة ، والامة والاسلام يسجلان ملحمة من الانتصارات على قوى المعسكر الجاهلي المنهزم ، والرسول القائد (ص) يتلقى البنود التشريعية من لدن حكيم خبير ، ليقيم دولته على أسس رصينة قادرة على تحمل أعباء حمل الرسالة الاسلامية الى آفاق هذا الكوكب الارضي بشتى وسائل التبليغ ـ دعوتية كانت أم جهادية ـ .

في مثل هذا الظرف الدقيق الذي تمر به الدعوة ، وفي مثل هذا الظرف من حياة الطلائع الاولى من معسكر الايمان ، وفي اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك سنة ثلاث من الهجرة ، أذاع بيت الرسالة نبأ ولادة الزهراء (ع) ذكرا ، وقد كان صدى هذا النبأ السار شديد الوقع في نفس محمد (ص) حيث امتلأت نفسه الطاهرة حبورا بهذا الوليد المبارك .

وأسرع الى بيت فاطمة الزهراء (ع) ليحمل لها تهانيه ويفضي لها بمسراته ، ثم يأمر أن يقدم اليه الوليد الكريم فتحمله اليه أم سلمة ـ أو اسماء بنت عميس (على قول) ـ وقد لف في خرقة صفراء ، فرمى بها الرسول (ص) وهو يقول : « ألم أنهكم ان تلفوا المولود في خرقة صفراء » [1] .

---

(١) المجالس السنية .

ثم أمر بلفه في خرقة بيضاء تم سره وألباه بريقه ، وتضرّع الى الله سبحانه بقوله « اللهم إني أعيذه بك وولده من الشيطان الرجيم » .

ثم أذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى ليكون وليده المبارك قد طرق سمعه ـ في لحظات حياته الاولى ـ منهج الله سبحانه المتمثل بالخضوع التشريعي لله سبحانه في كل شأن من شؤون الحياة الانسانية، ثم أعلن الرسول (ص) أن هذه المراسيم أسمى ما يقابل به المولود في هذه الامة حيث قال : « لايفعل ذلك بمثله الا عصم من الشيطان الرجيم » .

وبعد أن أتم الرسول (ص) هذه المراسيم الاسلامية إلتفت الى علي (ع) وقال :

هل سميته ؟ .

علي : ما كنت لاسبقك بأسمه .

الرسول : وما كنت لاسبق بأسمه ربي .

وتتصل السماء بالارض لتجيب على سؤال بيت الرسالة في شأن تسمية الوليد المبارك على لسان سفيرها المقدس جبرئيل . فيعلن : إن اسم الوليد (حسن) .

ويحل اليوم السابع لتحل معه حلقة جديدة من حلقات المراسيم الاسلامية التي يقابل بها المولود المبارك ، فيحل الرسول (ص) بيت ابنته الزهراء (ع) ، فتحمل وليدها اليه فيأمر بكبش فيعق عنه ، ثم يرفع يديه بالتضرع الى الله قائلا : « اللهم عظمها بعظمه ، ولحمها بلحمه ، ودمها بدمه ، وشعرها بشعره ، اللهم اجعلها وقاء لمحمد وآله [1] » . ثم منح القابلة فخذا ودينارا ، إكراما لها وتقديرا لمجهودها،

(١) المجالس السنية .

ثم يحلق رأسه ويتصدق بزنة شعره فضة ، ويأمر فاطمة باطلاء رأسه بالخلوق ، وهو مخلوط من عطور نباتي كالزعفران وغيره ــ • ويمنع (صلى الله عليه وآله وسلم) من طليه بالدم لانه من أخلاق الجاهلية •

وبعد أن تلد الزهراء (ع) الحسن السبط (ع) بأيام قلائل ، وفي الوقت الذي يعيش فيه بيت الرسالة في غمرة من الافراح والمسرات، تحمل الزهراء (ع) مرة أخرى فينتظر البيت العلوي الطاهر ولادتها بفارغ من الصبر • وتمضي الايام سريعة فيعلن بيت الرسالة المقدس نبأ بزوغ نجم الوليد الجديد في اليوم الثالث من شعبان وفي السنة الرابعة للهجرة النبوية •

وتردد آفاق (يثرب) صدى هذا النبأ المفرح ويتلقاه الرسول الاكرم (ص) بالبشر والحبور ، وتعلوه الفرحة ، وتبدو على تقاسيم وجهه الطاهر ، ويهب الى بيت أبنته الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) ليحمل لها مسراته وتهانيه الخالصة ، وتقدم اليه الطفل المبارك ليؤذن في أذنه اليمنى ويقيم في اليسرى ، ثم يعلن تسميته (حسينا) •

وفي اليوم السابع من ميلاده المبارك يعق الرسول (ص) عنه كبشا ، ويأمر الصديقة الزهراء (ع) بحلق رأسه والتصدق بزنة شعره فضـــة •

وتجري الزهراء (ع) المراسيم الاسلامية التي أجراها الرسول (ص) مع الحسن السبط (ع) حين ولادته •

وحينما تلد الزهراء (ع) وليدها الجديد المبارك فانما وهبت الاسلام والامة ، القيادة الرسالية الدائمة بعد أبيها وبعلها والمتمثلة بالحسن والحسين والائمة المعصومين من أولاد الحسين عليهم السلام•

وحين تلد الزهراء الحسين (ع) تحمل بعد أيام ، فينتظر بيت

الرسالة ليستقبل غرسا جديدا من زرع الايمان المقدس ، وتمر الايام سريعة ، واذا ببيت الوحي يزف بشراه بميلاد زينب الكبرى والصديقة الصغرى التي ستتولى دور أمها الرسالي في الحياة كمدرسة إسلامية تواجه كل إعصار جاهلي يواجه رسالة السماء .

وكان ميلاد الصديقة الصغرى ـ يوم الرابع عشر من رجب ـ على المشهور ـ في السنة الخامسة من الهجرة النبوية ، فهب البيت النبوي المبارك يزف بشائره لجماهير الامة الاسلامية ابتهاجا بهذه المناسبة الجليلة ، ويهب الرسول (ص) كعادته ليرفع تهانيه لبضعته الزهراء (ع) ويعلن تسمية هذه المولودة المباركة بـ (زينب) .

ويتولى بيت الرسالة جميع المراسيم التي ندب اليها الاسلام الحنيف على لسان القائد محمد (ص) . ويعيش بيت الرسالة مناخا دافئا من الافراح والمسرات ، فهو ما أن ينتهي من مناسبة الا ويدخل في مناسبة أخرى كأختها حاملة نفس الطابع من الابتهاج .

وبعد مضي أيام قليلة تحمل الزهراء (ع) حملا جديدا ، وما أن تمضي الفترة الطبيعية على حملها الا ويزف بيت الرسالة نبأ ولادة مباركة جديدة تحمل معها موجا من الافراح يشترك فيه جميع أهل بيت الرسالة .

ويأتي الرسول (ص) لتمثيل دوره الطبيعي في تهنئة ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) في ابنتها الجديدة ، فأعلن تسميتها زينب الصغرى ولقبها (أم كلثوم) ، وتجرى كافة المراسيم لها والتي أجريت لأختها من قبل .

ولدت أم كلثوم (ع) لتكون مع أختها الكبرى المدرسة الاسلامية

---

(١) زينب الكبرى / جعفر النقدي .

التي وضعت الصديقة الزهراء (ع) لبناتها ومقوماتها الاساسية .

وحين تولد أم كلثوم (ع) فانما قد تم بناء مسرح الامداد الرسالي المبـارك الذي يمثل مدرسة الوحي التي أقام خالق الوجود سبحانه صرحها الشامخ في الارض .

وتمضي الايام سريعة على أهل البيت (ع) ، ويترعرع الحسنان ويبدآن بالنمو جسميا وفكريا وروحيا ، وهما يتنقلان بين أحضان جدهما وأبيهما وأمهما (ع) حتى أصبح كيانهما الروحي والمادي بمثابة صفحة حية للرسالة الاسلامية ، بل أصبحا بمثابة التجسيد الحي للرسالة الاسلامية برمتها ، فأصبح فكرهما وسلوكهما وكافة ألوان نشاطهما اسلاما يسير على الكوكب الارضي . وهذه الحقيقة الكبرى انعكست على أقوال الرسول (ص) فراح يثير عزمة الامة الاسلامية على احتضانهما والتمسك بهما بعد جدهما وأبيهما . وراح يعلن هذه الحقيقة أمام الجموع الاسلامية وبصورة دائمة وبألحاح مستمر ، فها هو يعلن لأمته : « ابناي امامان قاما أو قعـدا . . . » « من أحبني فليحب هذين .. » « هما ريحانتاي من الدنيا ... » [1] .

وتنطوي صفحة الايام وتغيب شمس الرسالة حين يغيب شخص محمد (ص) ويفاجأ الاسلام بتيارات عنيفة كان ضحيتها أهل البيت عليهم السلام جميعا ، فيقصى علي (ع) من مركزه القيادي في الامة ، وتحرم الزهراء (ع) من نحلتها وتسام الخسف بعد أبيها حتى تلتحق بدار الخلود كئيبة ، وهكذا يفارق علي (ع) الحياة على ايدي عملية اغتيالية هوجاء .

أما الحسن (ع) وهو سبط رسول الله (ص) الاول ، فقد

---

(١) ذخائر العقبى .

تولى الحكم والقيادة بعد أبيه ، ولكنه فوجيء بأعصار خبيث من المحن السياسية التي حملته على اعتزال القيادة الشرعية ، وكانت هذه المحن السياسية متمثلة :

١ ــ بمعاوية بن أبي سفيان ، الذي استبد في بلاد الشام ، وأقام جرحا لايندمل في كيان الامة الاسلامية .

٢ ــ بالخوارج الذي استفحل نشاطهم في هذه الايام ، سيما بعد قتلهم لعلي بن أبي طالب (ع) .

٣ ــ تكالب المنافقين والمصلحيين على القيادة ، سيما في العراق .

٤ ــ الخيانة والانحلال الذي تعرض له جيش الحسن (ع) ــ نفسه ــ بعد الخيانة العظمى التي اتسمت بها شخصية قائده عبيد الله بن عباس الذي تواطأ مع معاوية على الغدر بالامام الحسن (ع) .

وتحت ضغط هذه المطارق الفنية اضطر الامام الحسن (ع) على مصالحة معاوية ، شريطة أن يتولى الحكم بعد معاوية الامام الحسن عليه السلام فان مضى قبل توليه الحكم تولى هذه المهمة :خوه الحسين عليه السلام . وشروط أخر كلها في صالح الامة الاسلامية مدرجة في عامة كتب التأريخ .

وحين يعقد الحسن (ع) بنود الصلح مع معاوية فانما كان ذلك بدافع الحرص على كيان الامة وحراستها من التصدع والانهيار ، وبالتالي حفظ كيان الرسالة ــ نفسها ــ من التلاعب والتحريف حيث رأى من الارجح أن يتولى مهمة حفظ الرسالة التي كان يمثل هو مدرستها الوحيدة ، وأما أن يبقى في مواقفه العسكرية والتنفيذية فانه سيقتل ــ حتما ــ ما دامت الظروف كلها ليست بصالحة ، ففضل العقود عن المهام التنفيذية تحت وطأة من الضغوط الاجتماعية والسياسية

والعسكرية .

ويقيني أن الذين يصفون الحسن (ع) بقلة التدبير وضعف الحنكة السياسية ، لو عادوا الى الظروف التي عاشتها الامة الاسلامية ـ يومذاك ـ ودرسوها دراسة مستوعبة لتوصلوا بطريقة منطقية واستقرائية الى أن صلح الحسن (ع) كان منطقيا وواقعيا .

ولكن معاوية ـ الذي صفا له الجو السياسي بعد مقتل أمير المؤمنين علي (ع) ـ نقض بنود الصلح بكاملها ، ولكنه لا يستطيع أن يعلن ـ صراحة ـ نقضها ، وانما اهتدى الى طريقة يتخلص بها من الطرف المصالح والمقابل له شخصيا .

وفعلا تمت المأساة ، حيث دس السم الى الحسن (ع) على يد زوجته بنت الاشعث ، فكان الحسن (ع) ضحية تلك الاحداث المريرة من حياة الامة الاسلامية .

ويهلك معاوية في حدود سنة ستين من الهجرة ، وسرعان ما تفاجاء الامة بامتطاء ابنه يزيد لدست الحكم ، دون سابق معرفة بشؤون التشريع ودون دراية بحاجة الامة ومصالحها ، وكان مجيء يزيد الى الحكم بمثابة :

١ ـ الالغاء الرسمي لبنود الصلح المعقودة بين الحسن (ع) ومعاوية .

٢ ـ التمادي في التضليل والانحراف بالامة الاسلامية عن معين الرسالة الاسلامية المقدسة ، والامر الاخير هذا قد استفز الحسين (ع) وحفزه على إعلان بيانه الاول الذي أعلن فيه عدم اعترافه بحكومة ضالة عن منهج الله تعالى ، وأنه عامل على إسقاطها بأي ثمن كان ، أو يفارق الحياة بعد أدائه لمهامه كقائد شرعي للأمة الاسلامية ومسؤول

عن حماية مبدئها القويم .

وجد الجد ، وتحمل سبط محمد (ص) كل التبعات ، وواجه الموت بصلابة شكيمة ، ورباطة جأش .

واجتمعت القوى المغرورة تحت راية الجاهلية الجديدة وبرز لها الايمان متمثلا بشخصية الحسين (ع) ، وكانت محصلة الاحداث : أن أن صافح التراب جبين الحسين (ع) وهو يرسم للأمة الاسلامية طريقها اللاحب في دروس ، ملؤها تضحية وإقدام وإباء ، وهو يعلم الاجيال ألا تستكين لظالم أو طاغوت ـ أنى كان لونه وشعاره ـ .

وتقف زينب الكبرى وشقيقتها الصغرى أم كلثوم موقفهما البطولي في مأساة الرسالة الاسلامية الاخيرة ، لتسجلا في التأريخ أسطرا من نور ، حيث يعيشان المصيبة والمحنة بكل أبعادها ، سيما بعد أن هدأ صليل السيوف ، فخرجتا يتفقدان القتلى ، فلا يجدان من حماتهما غير مقدود رأس ، ومصافح خده للتراب . ثم تلتفتان ، فلا تجدان غير طفل يصخب ، وأم تندب ، وفتاة تضطرب من ثقل المأساة . وهناك خيام تضطرم وقناع يسلب ، وعليل يئن ، فكان لابد لهما ـ وهما بقية الصفوة ـ أن يجمعا الاطفال والنساء في خيمة واحدة ، ويقوما بمهام الرعاية والحراسة بدبلا عن الفقيد وصحبه الابرار ، ثم يتبع ذلك أسر وتشريد ومذلة على أيدي أشر خلق الله ، يزيد وحفنة من أذنابه .

وهكذا تنتهي فصول هذه المسرحية ، مسرحية المأساة التي عاشها الغرس المبارك ، غرس الزهراء فاطمة بنت محمد (ص) .

الزهراء

في منطوق الرسالة الإسلامية

١ ـ في نظر القرآن الكريم

٢ ـ في ظلال السنة الشريفة

ـ ١ ـ في نظر القرآن الكريم ـ

وحين تشكل الزهراء (ع) المدرسة الاسلامية الكبرى في حياة الرسالة والامة بصفتها غرس النبوة الوحيدة الذي تولى إنجاب خلفاء الرسول (ص) الشرعيين المتمثلين بأئمة أهل البيت عليهم السلام . وحين تكون الزهراء (ع) النافـذة الوحيدة التي يطل منها القادة الحقيقيون على الانسانية ، فلابد للاسلام أن يولي مدرسته ـ هذه ـ كثيرا من الاهتمام والعناية ليجعل أمته أكثر قدرة على سلوك السبيل الالحب المتمثل باتباع أهل بيت الرسالة عليهم السلام .

والقرآن الكريم ـ وهو دستور الامة الخالد ـ قد أولى فاطمة الزهراء (ع) عنايته وأبرز قيمتها ومعالم شخصيتها في كثير من آياته. وإذا شاء الباحثون أن يستوعبوا هذه الآيات دراسة واستقراء لاضطروا الى تأليف كتاب ضخم لتحقيق هذا الهدف، ولذا فاننا حين نتعرض للحديث عن مقام الزهراء (ع) في نظر القرآن ، فلابد لنا أن نلتزم جانبا من الايجاز ما دام الامر يحتاج الى كثير جهد وبذل وقت طويل . ولنكتف بسرد الآيات الآتية :

١ ـ «إنما يريد الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت ، ويطهركم تطهيراً » [1] .

أجمع المؤرخون وأهل التفسير ـ من الصحابة والتابعين ـ على أن هذه الآية نزلت في محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) [1] فقد ورد عن أم سلمة (رض) : أنها قالت : ان هذه الآية نزلت في بيتي،

(١) سورة الاحزاب آية / ٣٣ .

(١) اعلام الورى / الطبرسي ، فضائل الخمسة من الصحاح الستة .

إذ أن النبي (ص) دعا عليا وفاطمة والحسن والحسين (ع) وجللهم بعباءةٍ خيبرية ، ثم قال : « اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا » ، فنزل قوله تعالى : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » .

وقد هز أم سلمة الشوق على أن تكون معهم ، فقالت لرسول الله (ص) « هل أنا من اهل بيتك ؟ » . قال : (لا ولكنك على خير).

وحين يلقي المتتبع نظرة فاحصة على هذا الحديث الذي ترويه أم المؤمنين أم سلمة ، وحين يطلع على مكانة أم سلمة ــ نفسها ــ في الاسلام ومكانتها الرفيعة عند الرسول (ص) يتضح له السر الذي دفع الرسول (ص) الى عدم حشرها في أهل بيته (ع) .

فأم سلمة هي التي يكلفها الرسول (ص) بأمور خاصة دون غيرها من نسائه لتتولاها ، فهو يكلفها بتربية فاطمة الزهراء (ع) بعد وفاة أمها ، وهي التي تتولى مهمة زفافها ورعايتها ، كما أن كثيرا من الحوادث التي عاشها بيت الرسالة ــ أفراحا كانت أم أتراحا ــ كان لام سلمة حظ" وافر فيها . والتأريخ يمتلىء بشواهد جمة ، كلها تسبغ على هذه الامرأة الجليلة أطارا من القدسية والقدم في الاسلام والاخلاص للرسول (ص) . ولكن هذه المكانة الرفيعة التي تتمتع بها أم المؤمنين أم سلمة لم ترفعها الى الدرجة التي وصلها أهل البيت (ع) لان أهل البيت لهم درجتهم الخاصة ونصيبهم الخاص من الكرامة الالهية مما جعل القرآن الكريم يفرد لهم صفة إذهاب الرجس عنهم ، فهم بعيدون عن كل خلق ونشاط وتحرك وسكون لايمت الى رسالة السماء بصلة ، فقد انطبع فكرهم وادراكاتهم وكافة ألوان نشاطهم وعواطفهم بلون الرسالة الآلهية المقدسة ، حتى عادوا اسلاما يسير على الارض . ولهذا

أعطى الرسول (ص) أم سلمة مقامها الذي يختلف في علو منزلته عن مقام أهـل البيت (ع) ، فهي على خير ، ولكنها لاتبلغ ذلك المقام السامي ، مع أنها ممن أنعم الله عليها بدرجة عالية من الايمان ولم يعرف عنها : أنها خالفت الرسول (ص) في حياته ، أو خالفت معالم التشريع في جانب من سلوكها .

والرواية ـ على هذا الاساس ـ تتحفنا نتيجة منطقية : أن آية التطهير ما نزلت الا في الزهراء وأهل بيتها ، وليس لازواج الرسول (ص) نصيب فيها ـ كما يدعي البعض ـ لان الرسول (ص) رفض حشر أكثر أزواجه تقيً ، وأعلاهن مقاما في الاسلام في أهل بيته ، والانخراط في سلكهم ، فكيف تكون الآية قد خصت الاخريات من نسائه ؟

وهكذا ترسم لنا الآية الكريمة أنها تعيش في أطار بيت الزهراء عليها السلام دون أن تخرج الى مدار أوسع ، وفقا لماقرره الرسول (ص) في محاورته لام سلمة ، وأجابته على طلبها بالنفي مع كونها على خير .

٢ ـ : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم ، فقل تعالوا ندع أبناءنا ، وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وانفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » [1] .

وهذه الآية المباركة نزلت في واقعة تأريخية حساسة جرت بين معسكر الايمان الفتي في يثرب ، ومعسكر الضالين عن درب الهداية المتمثل بنصارى نجران وغيرهم .

والتأريخ الاسلامي يعرض في هذه الواقعة كيف تنهزم قوى الضلال أمام قوى الايمان المسددة من الله جبار السماوات والارض .

وتتلخص الحادثة في : أن وفدا من نصارى نجران قدموا على

---

(١) سورة آل عمران / آية ٦١ .

رسول الله (ص) وكان فيهم السيد والعاقب والقس والحارث ، وأسقفهم عبد المسيح بن يونان ، وقد جرت بين ممثلي المعسكرين محاورة قصيرة : [1] .

الاسقف : « ياأبا القاسم ، موسى من أبوه ؟ » .

الرسول (ص) : « عمران » .

الاسقف : فيوسف ، من أبوه ؟

الرسول (ص) : يعقوب .

الاسقف : فأنت من أبوك ؟

الرسول (ص) : أبي عبد الله ابن عبد المطلب .

الاسقف : فعيسى من أبوه ؟

(وحين يسأل الاسقف هـذا السؤال فكأنمـا أراد أن يقول للرسول (ص) : فما دام لكل نبي أو لكل رجل من الذين ذكرت أب ، فلماذا تنكرون علينا قولنا ـ نحن النصارى ـ ؟ وانطلاقا من هذه الحقيقة : أن لعيسى أبا هو الله تعالى) .

الرسول (ص) : يطرق قليلا ليوكل الرأي الى السماء لتعطي الرأي الحاسم في المسألة ، فتعلن حقيقة خلق عيسى كخلق آدم ـ من قبل ـ وهو مما أتفق الطرفان على شكل خلقه : « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون » [1] .

الاسقف : (والذهول يستولي على كل جانحة فيه) :

أتزعم أن الله أوحى اليك ان عيسى خلق من تراب لانجد هذا فيما اوحي الينا ولا يجده اليهود فيما أوحي اليهم .

---

(١) مناقب آل أبي طالب .

(١) سورة آل عمران آية / ٥٩ .

الرسول (ص) يتلقى بلاغا جديدا من السماء ، فيتلوه عليهم : « فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وابناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وانفسنا وانفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » .

الاسقف : لقد أنصفتنا ــ ياأبا القاسم ــ فمتى نباهلك ؟

الرسول (ص) بالغداة ان شاء الله .

وينصرف وفد النصارى ، وهو على موعد للعودة من جديد لكي يباهل الرسول (ص) فيظهر الحق ويزهق الباطل .

ينصرف الوفد ولكن أمواجا من الهواجس والاحاسيس تترك في نفوس أكثر أعضائه ، ولعل بعضهم وثق من صحة دعوى محمد (ص) بالنبوة ، ولكنه لايستطيع أن يعلن ذلك خشية الضغط الاجتماعي الذي يعيشه ، فلابد من الانتظار ولكن محادثة أملتها المخاوف التي تجرها المباهلة ، ــ إن وقعت ــ جرت بين طليعة الوفد السيد للحارث :

ما تصنعون بمباهلته ؟

الحارث : أن كان كاذبا ما تصنع مباهلته شيئا ، وان كان صادقا لنهلكن .

الاسقف : إن غدا ، فجاء بولده وأهل بيته ، فأحذروا مباهلته ، وان غدا بأصحابه فليس بشيء .

واشرأبت الاعناق تنتظر صباح الغد لترى الحالة التي يأتي عليها محمد (ص) للمباهلة ، فجاء ــ وهو يحتضن الحسن والحسين (ع) وفاطمة وعليا (ع) يمشيان خلفه وجثا على ركبتيه جاعلا عليا (ع) أمامه وفاطمة (ع) خلفه والحسن (ع) عن يمينه والحسين (ع) عن شماله وخاطبهم : إن دعوت فأمنوا .

وحين يأتي محمد (ص) بهذه الهيئة التي خشيها الاسقف سابقا على اصحابه امتلأت نفوس النصارى رعبا وهلعا من ضراعة محمد (ص) الى ربه ، وخافوا أن تلم بهم قارعة ، او يحل عليهم عذاب الله سبحانه ، حيث أعلن أسقفهم : جثا والله محمد كما يجثو الانبياء للمباهلة .

ويعقب الاسقف مخاطبا قومه : « إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ، فلا تبتهلوا فتهلكوا » .

ويتدارك النصارى الامر فقالوا : « يأبا القاسم ، أقلنا أقال الله عثرتك » .

الرسول : قد أقلتكم .

ولكن النصارى أعلنوا لمحمد (ص) أن يبقى كل على دينه ، ولكنه أصر على ان يسلموا أو الحرب .

النصارى : « لاطاقة لنا بحربك » .

وقرروا مصالحته شريطة أن يعطوه ضريبة الجزية كإعتراف منهم بسلطان دولته السياسي على ارضهم وأبنائهم ، ويحفظ الرسول (ص) عهدهم ما داموا عليه .

وتنتهي المسرحية وتنتصر قوى الايمان ، فيعلن محمد (ص) بعد ذلك بقوله : « والذي نفسي بيده أن العذاب تدلى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم عليهم الوادي ناراً ولأستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا » [1] .

وهذه الواقعة التاريخية ، وهذه الآية المباركة التي نزلت لتبيان معالمها تجلي لنا بوضوح مقام الزهراء (ع) عند الله سبحانه ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث وصفتها الآية بـ (نساءنا) وهي

(١) نور الابصار / الشبلنجي .

على هذا الاساس نموذج العنصر النسائي في المعسكر الاسلامي الكريم، ولا مثيل لها في النساء على الاطلاق ، ولذا باهل بها رسول الله بأمر السماء ، ولو وجد خيرا منها تقىً أو ورعا او كرامة عند الله سبحانه لقدمها لهذا المقام الرفيع ، ولكنها ــ فاطمة الزهراء (ع) ــ التي طهرها الله سبحانه من الرجس فأرتفعت الى المستوى الذي جعل منها ممثلة لجماهير النساء في معسكر الايمان لكي يقتدين بها ، سيما بعد أن سبقتهن بهذه الدرجة الرفيعة .

وليست الزهراء (ع) وحدها قد ربحت قصب السبق في هذا المضمار ، ولكن بعلها عليا (ع) هو الآخر قد جعله الله ومحمدا (ص) نفسا واحدةً « وأنفسنا » دون استثناء ، فالرسول (ص) وعلي (ع) الممثلان الوحيدان لعنصر الرجال في معسكر الوحي لكي تقتدي الاجيال بهما بعد نيلهم لهذه الدرجة العالية في مضمار التقى والايمان التي لم يبلغها غيرهما من الواقفين تحت راية التوحيد .

والحسنان (ع) ــ هما الآخران ــ اللذان كسبا الربح فهما ــ على حد تعبير الآية الكريمة ــ ولدا محمد وعلي (ع) في آن واحد « أبناءنا » وهما على هذا الاساس سادة الابناء وقدوتهم في دنيا المسلمين ، وهما ــ وحدهما ــ اللذان يملكان حق تمثيل شباب الامة في مباهلة النصارى لان استجابة الله سبحانه تكون مضمونة ومكفولة وحتمية الوقوع .

٣ ــ « قل : لاأسألكم عليه أجراً الا المودةَ في القربى » .

عن ابن عباس وسعيد بن جبير (رض) : لما نزلت هذه الآية .

قيل : يارسول الله : من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم ؟ .

قال : علي وفاطمة وولداهما [1] .

وعن جابر ، قال : « جاء أعرابي الى النبي (ص) فقال : يامحمد، أعرض عليّ الاسلام ، فقال : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله .

قال : تسألني عليه أجرا ؟

قال (ص) لا ، الا المودة في القربى .

قال : قرباي أم قرباك ؟

قال (ص) « قرباي » .

قال : هات أبايعك . ، فعلى من لايحبك ولا يحب قرباك لعنة الله.

قال (ص) : آمين .

وعن علي بن الحسين (ع) وسعيد بن جبير وعمرو بن شعيب وعن أبي جعفر وعن أبي عبد الله (ع) مرفوعا الى رسول الله (ص) : أنه قال حين سئل عن مفاد هذه الآية : « أن تودوا قرابتي » [1] .

وحين ترتفع هذه الآية الكريمة الى هذا المستوى في تأكيد محبة أهل البيت ــ فاطمة وبعلها وبنيها ــ ، فانما توضح للأمة الاسلامية وأجيالها المتعاقبة الدرجة العالية التي بلغها أهل البيت (ع) في مضمار التقرب الى الله ــ سبحانه ــ والسير وفقا لمنهجه السوي ، فالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حين يسأله بعض المسلمين ما الأجر قبال جهوده المضنية في بث الدعوة وتثبيت كيانها ونشر معالمها في الارض ؟

حين يسأله هؤلاء عما يبتغيه من أجر أزاء متاعبه في بث منهج الله يرفض كل أجر قبال ذلك لسببين :

---

(١) ينابيع المودة للقندوزي .

(١) مجمع البيان / الطبرسي .

١ ـ لعلمه أن الله سبحانه سيوفيه أجره كاملا لانقص فيه حين يفد إليه في الدار الاخرى حيث النعيم الدائم .

٢ ـ ان البشر ـ مهما أوتوا من حول وطول ـ غير قادرين على منحه من أجر غير الاجر المادي المتمثل بالمال او الزوجة او الاجر المعنوي المتمثل بالثناء أو المنصب وما يشبههما ، وكلا الاجرين مقطوعان بانقطاع المرء عن الدنيا . واذا كان محمد (ص) غير محتاج الى أجر أمته المنقطع لذاته ، فقد سألهم أجرا ، ولكنهم هم الذين يستوفونه ، ذلك الاجر هو مودة أهل بيته (ع) والسير على هداهم لانهم ـ وحدهم ـ منار الشريعة ومهبط الوحي والتنزيل .

لقد سأل أجرا لكنهم يجنون ثماره ، فبمودتهم لاهل البيت (ع) وسلوكهم سبيلهم يدركون العزة وينأون عن الفرقة التي تحصل باتباع سواهم ، فالامة حين تلتزم جانب أهل البيت قربى محمد عليهم السلام فانما التزمت جانب المنهج الإلهي الكريم بأصالته وجوهره السماويين بعيدا عن كل تحريف وشائبة .

ومن أجل هذه الحقيقة خاطبت السماء محمدا (ص) ليسأل أمته أن تحدب على أهل بيته الاماجد (ع) ، لان ذلك يمثل الاجر الذي تدفعه الامة لرسولها (ع) ، بل يمثل الضريبة الثابتة التي تدفعها الاجيال لمحمد (ص) دون سواها ، لكن هذه الضريبة وهذا الثمن تدفعه الامة ذاتها لذاتها لان كرامتها وسؤددها أنيطت بعطفها وحنانها ورعايتها واتباعها لاهل البيت (ع) الذين يمثلون الامداد الرسالي لمحمد (ص) وحين يسأل محمد (ص) هذا الاجر دون سواه فانما أراد ان يوضح للأمة الشوط البعيد الذي قطعه أهل بيته من الكرامة عند الله ، وهذا الاجر بعد ذلك قد اقترحته السماء على

محمد (ص) لينالـه من أمته فرددت الآفاق صدى بيـان الوحي : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى » [1] وهكذا تبرز آية المودة قيمة الزهراء (ع) وبيتها الطاهر ، ملزمة الامة بحبهـا واحتضان نسلها المبارك لتكون الامة بعد ذلك قد دفعت الاجر الذي كلفت بدفعه لقائدها المنقذ محمد (ص) .

٤ ــ « ... يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه : مسكينا ويتيما وأسيرا ، انما نطعمكم لوجه الله ، لانريد منـكم جزاءً ، ولا شكورا ، إنّا نخاف من ربنا يوماً عبوسا قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الارائك ، لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا .. » [1] .

أجمع المؤرخون وأهل التفسير على أن هذه الآيات الكريمة من (سورة الدهر) نزلت في : الزهراء (فاطمة بنت محمد ــ ص) وبعلها وابنيها : الحسن والحسين عليهم السلام ــ .

والقارىء لهذه الآيات يستطيع ــ لاول وهلة من قراءتها ــ أن يستلهم من ظلالها الوارفة قصة تأريخية جليلة ، وان لم يستطع ان يلمس أسماء القائمـين بتجسيدها على واقع الحياة . هذا ما يلمسه القارىء العادي لهذه الآيات . أما حين يبحث في أسباب ووقت نزولها ، فانه سيعيش قصة جليلة عاشت في بيت الرسالة الطاهر فقد أتحفتنا الروايات التاريخية للصدر الاول من حياة الامة الاسلامية الكريمة [2] ان الحسن والحسين (ع) قد مرضا ، فعادهما جدهما الاكرم محمد (ص)

(١) سورة الشورى آية / ٢٢ .

(١) سورة الانسان آية / ٧ ــ ١٣ (٢) المناقب للخوارزمي .

مع وفد من أصحابه الاماجد ، وحين يرى الرسول (ص) حالة ولديه الحبيبين هذه ، يطلب الى علي وفاطمة ان ينذرا لله صوما إن عافاهما مما هما فيه من سقم .

ويشفى الحسنان (ع) من علتهما ، ويحل وقت أداء النذر ، فيصوم علي وفاطمة والحسنان وفضة . وحين يحل وقت الغروب تحضر فاطمة وفضة ــ جاريتها ــ طعام الفطور الذي كان قوامه خبز الشعير . وحين يتناول علي (ع) أول لقمة من هذا الطعام يطرق الباب فتهب فضة لتعرف من فيه ، فاذا الطارق مسكين قد استبد به الجوع ، وتعود فضة لتطلع بيت الرسالة على خبره . وتجتمع الكلمة على رفع الطعام ــ برمته ــ الى المسكين ، ويستمر أهل البيت (ع) لايتناولون شيئا غير الماء الخالص .

وعند الصباح الثاني يبدأ اليوم الثاني من الصوم ، ويحل وقت الغروب وتعد فاطمة وفضة طعام الافطار ، وما أن يتهيأ اهل البيت (ع) لتناول طعامهم الا ويطرق باب الدار عليهم ، فتسرع فضة لتعرف من فيه ، وسرعان ما تعود حاملة نبأ وجود يتيم في الباب ، وقد أخذ الجوع مأخذه من نفسه . وعلى الفور يرفع الطعام الى اليتيم ليستمر أهل البيت (ع) وهم لايتناولون غير الماء .

ويجيء اليوم الثالث ليواصل أهل البيت صيامهم ، حتى اذا حل الغروب هيىء الطعام . وما أن حان أوان تناوله حتى يطرق الباب ، فتسرع فضة لمعرفة من فيه ، فاذا بأسير قد آلمه الجوع ، فتعود فضة لتنبىء أهل البيت (ع) بخبره فيرفع الطعام اليه ، ويستمر أهل البيت عليهم السلام وهم يتضورون من الجوع ولا يتناولون غير الماء وحده ، مع شدة حاجتهم الى الطعام .

وتشارك السماء بيت الرسالة مشاركة فعلية ، فأرسلت مكافأتها لهم ببيان مستطرد ، نزل به الوحي على محمد (ص) شارحا القصة ، ثم يصور المقام الكريم الذي سيؤول اليه أهل البيت (ع) في الآخرة ، محددا أبعاده وأطاره : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا إنما نطعمكم لوجه الله لا نُريد منكم جزاءً ولا شكورا إنما نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا » .

هذه هي الابعاد الحقيقية للحادثة التي تجسدت في ظلال بيت الرسالة ، حية نابضة بالحركة .

يصورها القرآن ثم يطلعنا على صورة حية لسلوك أهل البيت (ع) فهم يطعمون الفقراء والمساكين ولكنهم لا يسألونهم أجرا ولا يبتغون منهم شكرا ، إنما يفعلون ذلك تقربا الى الله ، وهو حسبهم ومرضاته غايتهم .

وحين يكشف القرآن الكريم هذه الحقيقة فانما يكشف لنا عن حقيقة المقياس العملي الذي يلون حياة أهل البيت (ع) ويطبع كافة الوان نشاطهم بطابع الخضوع لله سبحانه في كل فعالياتهم ونشاطاتهم الفردية والاجتماعية .

ثم يأتي المكافأة التي يندر نظيرها : « فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نظرة وسرورا . متكئين فيها على الارائك ، لايرون فيها شمسا ولا زمهريرا . ودانيةً عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ... » .

وبسبب هذا السلوك الملون بسلوك الرسالة والمصطبغ بصبغة المنهج الإلهي ، استحق أهل البيت (ع) هذا المقام الاخروي الكريم ، الذي لحمته جمال وجلال وسُداه بهجة وسرور .

وحين يكسب أهل البيت (ع) هذه الكرامة القصوى عند الله

سبحانه ـ وفي طليعتهم الصديقة الزهراء (ع) فانما يتوجب علينا ـ نحن أبناء الامة الاسلامية ـ أن نحذو حذوهم ونقتدي بمنهجهم في الحيـاة .

وبعد استعراض هذه الآيات الجليلة التي اتسمت بطابع الحديث عن فاطمة وبيتها الطاهر ، أصبحنا وبين أيدينا بنود ضخمة وأطر ثابتة تكشف لنا عن الدرجة العظيمة التي بلغتها الزهراء (ع) في مضمار التقرب الى الخالق الجليل سبحانه ، فأستحقت بذلك هذه الكرامة التي لايوازيها فيها غيرها من سائر الناس .

: ٢ ـ في ظلال السنة الشريفة :

في السنّة النبوية عدد ضخم من الاحاديث التي لاتخضع للحصر، نطق بها الرسول محمد (ص) ليبرز قيمة الزهراء وبعلها أمير المؤمنين علي (ع) وولديها الحسنين ـ عليهم السلام ـ وقد أجمع اهل السير والتأريخ على اكثرها ، ولكن هذا العدد الضخم من الاحاديث النبوية التي طفحت بها كتب السيرة النبوية وكتب الحديث قد ولدت لدى بعض المرجفين وأعداء الحق نوعا من رد الفعل مما جعلهم يفسرون هذه الظاهرة ـ ظاهرة غزارة الاحاديث النبوية في فضل الزهراء (ع) على أنها تمثل موجا عاطفيا ، دفع الرسول (ص) لمدح فاطمة (ع) كما مدح عليا (ع) بدافع عاطفي كذلك ، فهو (ص) يبرز قيمة الزهراء عليها السلام وأبعاد فضلها على نساء العالمين لانها ابنة خديجة التي كان يحبها حبا مطلقا ، سيما وهي التي وقفت معه أيام عسرته ، وبذلت كل ثروتها في سبيل دعوته . وهذا ما جعله يعطف على فاطمة (ع) لانها وديعة زوجته المخلصة خديجة ، فضلا عن أنها ابنته ، مما جعل عاطفة الابوة ـ هي الاخرى ـ تلعب دورها في أحاديثه ـ على حد تعبير المرجفين ـ .

ويفسّر هؤلاء الاحاديث التي أطلقها الرسول (ص) في إبراز شخصية علي بن أبي طالب (ع) وكثرة الثناء عليه في أنها أحاديث أملتها العاطفة على محمد (ص) ، فالانتصارات المستمرة التي أحرزها علي (ع) والبطولات التي حققها في جهاد الرسول (ص) وحروبه

مع أعداء الاسلام ، هي التي دعت الرسول (ص) أن يذكر عليا (ع) في مناسبات كثيرة يضمنها مدحه وثناءه المنقطع النظير لعلي (ع) مادام هو القائد لانتصاراته والماحق لصرح أعدائه [1] .

هذه التفسيرات أطلقها بعض الكتاب المحدثون عند استعراضهم لبعض معالم السنة النبوية ، لاسيما في الجانب الذي يتناول أهل البيت (ع) .

ولكن هذا التفسير الجائر لهذه الاحاديث النبوية يمثل حملة عنيفة على شخصية الرسول (ص) بصفته حامل رسالة سماوية .

ونحن بدورنا نستطيع أن ندحض هذه الشبهات الوضيعة إذا رسمنا نقطتين في هذا المجال لتبيان بطلان هذه التفاسير التي لايسندها منطق ولا يدعمها واقع :

١ ــ إن ادعاء كون الرسول (ص) يتأثر تأثرا عاطفيا في أحاديثه يجعل القائلين به يخرجون الرسول (ص) عن حدود العصمة ، مع أن الادلة العقلية والنقلية مستفيضة في إثبات عصمة الرسول (ص) في كافة ألوان نشاطه ، وفيما يصدر من أحكام وآراء ، فكيف يتأثر ــ يا ترى ــ بالعاطفة مع العلم أن العاطفة يتسرب الوهن والخطأ الى أحكامها ؟ . والقرآن الكريم ــ كتاب الله العزيز ــ قد أمرنا بالالتزام بكل تعليم يصدر عن الرسول (ص) أنى كان لونه ــ كقوله تعالى : « ... وما آتاكم الرسول ، فخذوه ، وما نهاكم عنه فأنتهوا » [2] .

وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فأتبعوني يحببكم الله » [3] .

---

(١) وعاظ السلاطين / الوردي .

(٢) سورة الحشر / آية ٧ .

(٣) سورة آل عمران آية / ٣١ .

فلو لم يكن الرسول (ص) بعيدا عن العاطفة في أقواله الشريفة ونشاطاته المتعددة ، لما ألزمنا الله تعالى باتباعه ، علما بأن الآيات صريحة لم تستثن في أقوال الرسول أو أفعاله شيئا ، بل إننا ملزمون باتباع كل ما ألزمنا الرسول (ص) باتباعه . وقد قرر القرآن الكريم حقيقة عصمته قبل إلزامنا بالسير طبقا لتعليماته ـ قولية كانت أم فعلية ـ لقوله تعالى : « ... وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى ، علمه شديد القوى ، ذو مرة فاستوى » (١) .

لأن العصمة تمثل ـ بدورها ـ المناعة الطبيعية التي تضفي على صاحبها لونا خاصا من السلوك ، تبعده عن كل ما من شأنه أن يوقعه في سهو أو خطأ يخرجه في سلوكه ـ أنى كان لونه ـ عن أطار المنهج الإلهي .

٢ ـ ان أحاديث الرسول (ص) التي أطلقها في مواقفه الكثار في التحدث عن أهل بيته وفي طليعتهم علي وفاطمة ـ مهما بلغت من مستوى عاطفي ـ كما يدعي المرجفون ـ فانها لم ترتفع في مستواها عن مستوى الآيات الكريمة التي نزلت لتبيان سمو منزلتهما العظيمة ، بل إن أحاديث الرسول (ص) التي وصفت عليا وفاطمة ، أو أثنت عليهما ـ كانت شرحا لتلك الآيات أو عيشا في ظلالها الوارفة دون خروج عن أطارها العام على الاطلاق .

لنعش ـ قليلا ـ في ظلال بعض الاحاديث النبوية التي نطق بها الرسول (ص) للثناء على أهل البيت أو تبيان فضائلهم ، ليتضح لنا ـ بجلاء ـ المستوى العاطفي المزعوم في أحاديث الرسول (ص) بعد أن نقرنها بالآيات الكريمة التي نزلت في أهل البيت (عليهم السلام) .

---

(١) سورة النجم / آية ٣ ـ ٦ .

١ ــ ورد في (صحيح البخاري) عن أعور بن مخزمة : أن رسول الله قال : « فاطمة بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني » .

٢ ــ (مستدرك الصحيحين) عن علي (ع) قال رسول الله لفاطمة : « ان الله يغضب لغضبكِ ، ويرضى لرضاكِ » .

٣ ــ في (مسند أحمد بن حنبل) : أن رسول الله أخذ بيد حسن وحسين ، وقال : « من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما ، كان معي في درجتي في الجنة يوم القيامة » .

٤ ــ عن أبي هريرة ، قال : نظر النبي (ص) الى علي وفاطمة والحسن والحسين ، فقال : « أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم » .

٥ ــ روى أبو سعيد الخدري (ره) قال : سمعت رسول الله (ص) يقول : « إنما مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق » .

٦ ــ روى زين بن ارقم ، قال : قال رسول الله (ص) : « إني تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ولن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض ، فأنظروا كيف تخلفوني فيهما » .

وبايراد هذه الجملة من أحاديث الرسول (ص) التي تتسم بطابع الثناء على أهل البيت (ع) يجدر بنا أن نكشف المدى الذي بلغته هذه الاحاديث الكريمة التي تمثل مجموعة ضخمة من السنة النبوية الشريفة في تبيان فضائل أهل البيت (ع) :

فالحديث الاول ، لم يرسم لنا الا ما أكدته آية المودة : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى » .

حيث إن الآية ألزمت الامة إلزاما شرعيا بمحبة أهل البيت والسير

وفقا لمنهجهم القويم .

وعلى هذا الاساس الذي تقرره الآية الكريمة ، فان إغضاب أهل البيت وإيذاءهم جريمة ، لأنه يجر الى اغضاب الله تعالى ورسوله الكريم اللذين قررا وجوب محبة أهل البيت والالتزام بحبلهم .

والحديث الثاني ، يلتزم ـ هو الآخر ـ بنفس القيود ، بل يؤكد نفس المعالم التي رسمتها آية المودة ، لان الله سبحانه قد قرر محبة الزهراء وإرضاءها ، اذ لاتتحقق أبعاد المحبة الا بارضائها .

ولما كان الله تعالى هو الذي ألزم الامة بمحبة الزهراء (ع) وسائر أهل البيت (ع) ، فقد أصبح إرضاؤها ارضاءً لله الذي أوجبه، كما أن إسخاطها سيجلب سخط الله تعالى الذي ألزم بالحنو عليها وسلوك منهجها .

والحديث الثالث ، يبرز الحقيقة ـ عينها ـ فحين تتم طاعة المرء للرسول (ص) التي تؤلف الركن الثاني من أركان الايمان في الرسالة الاسلامية ، وحين تجتمع مع هذه الطاعة ، طاعة أهل البيت ومودتهم ، فانما قد تتحقق بذلك السعادة ويتجسد الايمان في نفسية المرء وألوان سلوكه مما يحتم بلوغ هذا الانسان درجة رفيعة من التقى تقوده الى الجنة .

وهذا الحديث الذي يطلقه الرسول (ص) فانما يعيش فيه تحت ظلال الآيات الكريمة ، فالله سبحانه هو الذي ألزمنا بأتباع الرسول وطاعة أهل بيته ، وحين نجسد هذه الطاعة على سلوكنا ، فانما قد مثلنا مفهوما ألزمنا الله بأتباعه ، وحين نلتزم بهذا المفهوم الحيّ ، نكون قد حققنا الطاعة المطلقة لله سبحانه التي تقودنا الى رضوانه ودخول جنته .

والحديث الرابع ، يعطينا نفس الإيحاء ويضرب على نفس الوتر في وجوب الاعتصام بأهل البيت (ع) ، لان عدوهم معادٍ للرسول الذي سأل مودتهم كأجر تدفعه الامة الى رسولها (ص) ، وهـذا ما تقرره آية المودة ـ عينها ـ .

وأما الحديث الخامس ، فانه يعطي نفس التلقينات التي رسمتها آية التطهير من كل رجس .

اذن فالامة مكلفة بأتباعهم ، لانهم على هذا الاساس : سبيل النجاة ، والطريق المستقيم الموصل الى الله تعالى .

وفي الحديث السادس ، يوضح الرسول (ص) : أن أهل بيته : ترجمان الكتاب ، والصورة الحية المتحركة لمنهج السماء . ولو لم يكن أمرهم هذا شأنه ، لما وصفهم الله تعالى بالمطهرين من الرجس ، ولما أوجب مودتهم واقتفاء أثرهم .

ونحن ـ حين نستعرض أبعاد الاحاديث التي نطق بها الرسول (ص) مشيدا فيها بأهل بيته ـ فاننا لانشم أية رائحة للعاطفة التي يدعيها المرجفون ، فهو ـ مرة ـ يلزم بحبهم ، ـ ومرة ـ ينهى عن إسخاطهم ، ـ وأخرى ـ يأمر بارضائهم ـ وثالثـة ـ يصفهم بسفينة نوح ، ـ ورابعة ـ يصفهم بترجمان القرآن والوحي . وهذه النعوت التي يطلقها الرسول لم تكن لتخرج ـ على الاطلاق ـ عن إيحاء الآيات الكريمة التي ألزمت بحبهم ، وأعلنت طهارتهم من كل دنس جاهلي ، فما دام الله سبحانه قد جعل طاعة أهل البيت (ع) كسائر الفرائض والاحكام الشرعية ، فان الرسول (ص) قد التزم بهذا التلقين السماوي ، لذا كانت أحاديثه غزيرة في هذا المضمار ، ولعله (ص) ما اهتم بأهل بيته هذا الاهتمام ولم يولهم هذه العناية المنقطعة النظير الا لانه واثق

من أن كرامة الامة وسؤددها منوطتان باحتضان أهل البيت (ع) والسير وفقا لمعالم منهجهم الاسلامي الرصين ، فأراد أن تردد الآفاق صدى أقواله لتقود الامة الى طاعة أهل البيت (ع) الذين يمثلون القادة المبدئيّين الحقيقيّين بعد محمد (ص) ، وعلى أيديهم تتحقق أصالة هذا المنهج الإلهي وكرامة هذه الامة ومجدها التالد .

نِقَاطٌ مُضِيئَة

في حياة بعض الناس ومضات يحار العقل البشري عند استذكارها والتفكير بها ، وحين يقف المرء عندها تخشع جوانحه حيرة واكبارا لصانعيها . والاجيال السالفة أو المستقبلة لاتستطيع ان تنهض بأعباء حياتها مالم يوجد في صفوفها نفر يحملون هذه المميزات العظيمة ليكونوا جديرين بحمل الرسالة أو ليكونوا قدوة يحتذى بها في السلوك الفردي أو الاجتماعي . وكثيرا ما ينهض بهذه الاعباء نفر من الرجال ممن توفرت فيهم بعض المؤهلات التي رفعتهم الى مستوى المسؤولية — مسؤولية إنقاذ مجتمعاتهم أو الانسانية بكاملها — أحيانا — كما هو عليه الرسل — عليهم السلام — والى جانب هذه الشموع التي أضاءت للبشرية طريقها — عبر التاريخ — برزت بعض النساء ليؤلفن مناخا دافئا لخلق أجيال مهذبة ، ولكن تأريخ البشرية لم يحض الا بقليل من هذه الشموع الجديدة . ولهذه الحقيقة أشار القائد محمد (ص) بقوله : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء الا مريم ابنة عمران ، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد » .

فهؤلاء النسوة قد تربين في أحضان الوحي حتى بلغن مرحلة النضوج للشخصية لاتبلغها غيرهن من العنصر النسائي في المجموعة البشرية ، فضلا عن الرجال سوى الانبياء والاوصياء منهم .

ونحن في هذه الصفحات الوجيزة بودنا أن نمارس حديثا عن صفات طفحت بها شخصية فاطمة بنت محمد (ع) لتبقى نبراسا تهتدي

بها الامم والشعوب التي تتطلع الى المجد والعزة . وها نحن ـ أولاء ـ نرسم بعض النقاط المضيئة النـابضة بالحياة التي اتسمت بها حياة الزهراء (ع) :ـ

* في أشد الايام التي مرت بها دولة النبي محمد (ص) في يثرب الفتية عسرة ، حيث الضائقة المالية وانحطاط الحالة الاقتصادية التي ولدتها كثرة الحروب التي دارت رحاها بين دولة المنهج الإلهي والدول القائمة على أسس جاهلية ، حيث أن طبيعة الحروب تفرض بطبيعتهـا سياسة تقشف تفرضها الظروف العسكرية سيما لدى الدولة التي تبتلى بغزو أعدائها الكثار الذين يعملون على انتهاز كل فرصة للأطاحة بهذه الدولـة .

أجل الضائقة المالية تلعب دورها في حياة المجتمع الفتي في يثرب ، والموارد المالية لاتتعدى بعض الغنائم التي يكسبها المحاربون من الاعداء أو بعض الزكوات التي يدفعها أغنياء الامة الى دولتهم ، أما سوى ذلك فلا وجود له ، فلا زراعة يعتمد عليها حيث تمتاز أرض الحجاز الا ما ندر ـ بجد بها وصحراويتها وجفافها ـ ولا صناعة تذكر غير حياكة يدوية لبعض الملابس وحدادة لبعض آلات الحرب من سيوف ودروع ورماح ونحوها ، كما لم تهتد البشرية يومذاك لمعرفة استخراج النفط ونحوه من خيرات الارض ، كل ذلك غير متوفر بهذه الدولة الفتية فلابد أن تكون محصلة هذه الاحاديث ضائقة مالية وعسرا اقتصاديا يعم جميع طبقات الامة . وفضلا عن كل ذلك فالفتوحات ما زالت مقصورة على أرض الجزيرة العربية التي تمتاز بندرة مواردها المالية حيث لم تصل جيوش محمد (ص) بعد الى أرض السواد أو أرض الكنانة أو الهلال الخصيب لكي تدر هذه البقاع بعضا من مواردها على مركز

الدولة في (يثرب) .

في مثل هذه الايام القاسية ـ اقتصاديا ـ يدخل على رسول الله (ص) شيخ كبير تبدو الفاقة على ملامح شخصيته كلها ـ فالثياب رثة" مهلهلة ، والظهر محدودب ، والوهر بارز على تقاسيم وجهه ، وقد جاء يحمل مطاليبه لرسول لله محط أنظار المعوزين وأبي الفقراء والمحتاجين ـ فقال [1] : « يارسول الله أنا جائع الكبد فاطعمني ، وعاري الجسد فأكسني ، وفقير فأثرني » ولكن الضائقة المالية التي تحياها دولة محمد (ص) بسبب التعبئة العسكرية وقلة الموارد المالية في الحجاز جعلته يعتذر ، فيقول له : « ما أجد لك شيئا ، ولكن الدال على الخير كفاعله ، انطلق الى ابنتي فاطمة » .

وأمر بلالاً أن يدله على بيت الزهراء (ع) ، ويبلغ الشيخ بيت الزهراء ، وعلى الباب يرفع صوته : « السلام عليكم يا أهل بيت النبوة ، ومختلف الملائكة ، يابنت محمد أقبلت على أبيك سيد البشر مهاجرا من شقة : عاري الجسد ، جائع الكبد ، فارحميني يرحمك الله» .

وتسرع الزهراء (ع) الى جلد كبش مدبوغ كانت بمثابة فراش ينام عليه الحسنان (ع) فتمنحه الى الشيخ المحتاج وهي تقول له : « عسى الله ان يتيح لك ما هو خير منه » .

ولكن الشيخ لم يقبل منها أعطيتها ـ هذه ـ فقال : « أنا شكوت اليك الجوع فناولتني جلد كبش ، فما أنا صانع به مع ما أجد من السغب ؟ » .

وتعمد فاطمة الزهراء (ع) الى عقدٍ في عنقها أهدته اليها فاطمة بنت حمزة ، فتدفعه الى الشيخ ، وهي تقول : « خذ وبعه فعسى الله

(١) الدمعة الساكبة .

أن يعوضك بما هو خير لك منه » .

ويعود الشيخ الى مسجد الرسول (ص) ويبيع العقد حيث يبتاعه منه عمار بن ياسر بمبلغ عشرين دينارا ومائتي درهم وبردة يمانية وراحلة يبلغ الشيخ عليها أهله ، وينطلق عمار بالشيخ الى بيته ليفي له بثمن العقد ، ويعود الشيخ الى الرسول (ص) فيقول له : « أشبعت وأكتسيت ؟ » .

قال الشيخ « نعم واستغنيت بأبي أنت وأمي » .

الرسول معلقا على قوله ـ : « فأجز فاطمة في صنعها معك خيرا » .

الشيخ : « اللهم أنت اله ما استحدثناك ، ولا اله لنا نعبده سواك ، وأنت رازقنا فأعط فاطمة مالاعين رأت ولا أذن سمعت » .

فيؤمن محمد (ص) على دعائه ويلف عمار عقد الزهراء ببردة يمانية ، ويطيبه بالمسك ويبعثه وعبده هدية لرسول الله . وما أن يصل العبد وبصحبته العقد للرسول حتى يبعثه لفاطمة ، فتأخذ فاطمة العقد ، وهي تقول للعبد : « اذهب ، فأنت حر لوجه الله » . لتضيف مكرمة جديدة الى مكارمها العظيمة ، ويبتسم العبد ، وهو يقول : « ما أكثر بركة هذا العقد : أشبع جائعا ، وكسى عريانا ، وأغنى فقيرا ، وأعتق مملوكا ، وعاد الى أهله .. » .

هذه ومضة حية من حياة الزهراء (ع) تتجلى فيه روعة التكافل الاجتماعي في المجتمع الاسلامي ، فضلا عن طابع المحبة والتوادد الذي يلون حياة أبناء الامة الاسلامية في الصدر الاول يوم عرفوا الاسلام منهج حياة يرتفعون على أساسه الى مستوى خلافة الارض ..

* ومما تنقله لنا كتب السيرة الشريفة : أن الزهراء سألها القائد محمد عن أي شيء تود أن تكون عليه المرأة المسلمة ؟ فاذا هي تقول :

« أن لاترى الرجل المحرَم ، ولا الرجل المحرم يراها » [1] .

فيعلو البشر محمدا (ص) ، فيضمها الى صدره وهو يقول :

« ذرية بعضها من بعض .. » .

وهذا التصريح من الزهراء (ع) ليس قولا تطبعه الهواية أو الصفة النظرية ، وإنما يمثل حقيقة يقرها الواقع الانساني الفسيولوجي والاجتماعي .

ربما يجد المرء ــ سيما ممن يعيش في هذا القرن ــ أن في هذا القول مبالغة في الحجاب بالنسبة للمرأة ، وحصرها في أطار البيت .

يقول المرء هذا اذا لم يكن قد عرف السر الذي دفع الزهراء (ع) أن تعلن هذا المفهوم الاسلامي الاصيل ، وقد يتفق المعترض مع الزهراء إذا عرف ان الانسان يملك ــ فيما يملك ــ غريزة أصيلة تعرف ــ بالغريزة الجنسية ــ ومما يميز هذه الغريزة وبعض الغرائز الاخرى لدى الكائن الانساني : أنها تثار من الخارج ومن محيط الانسان عينه ، فتثيرها الاحاديث الجنسية والقصص المغرية والافلام الخليعة والمجلات الداعرة والاغاني وغيرها ، فتجعل من الانسان اكثر اندفاعا لاشباع هــذه الغريزة ، [1] وحين تكون هذه الغريزة اكثر على الاثارة حين تتوفر لها الاجواء الجنسية ، فقد حاول الاسلام ــ وهو دين العفة والفطرة ــ أن ينزه مجتمعه الكريم من كل الآثار التي تؤدي ــ بدورها ــ إلى إثارة هذه الغريزة الجنسية ، وكان في طليعة مشاريعة التي أقامها ــ بغية حفظ التوازن في المجتمع ــ : أن منع التبرج والاتصال غير المشروع بين الرجال والنساء ، لان هذا الاتصال ــ ان وقع ــ سيكون مدعاة

---

(١) كشف الغمة / الاربلي .

(١) الفكر الاسلامي / محمد محمد اسماعيل عبده .

لإثارة الغريزة لدى الافراد ، مما يهيىء لحدوث جرائم خلقية في المجتمع الاسلامي .

ولكن الاسلام ألتزم جانب الوقاية لمنع حدوث الداء . ولهذه العلة عينها تنطلق الزهراء (ع) لتوضيح مفهوم الاسلام عن العلاقات الجنسية في المجتمع الاسلامي الرشيد ، فهي علاقات لاتقوم إلا على أساس الكرامة وحفظ الموازين الاخلاقية ، فاذا هي تقول عن المرأة « ألا ترى الرجل المحرَم ، ولا الرجل المحرم يراها » .

فللرجل والمرأة الحق ــ فقط ــ أن يرى بعضهما الآخر ويمارس نشاطه معه في أطار شرعي نظيف ، بعيد عن منطق الشهوات الهابطة .

والرجل المحرَم ــ في نظر الاسلام ــ من لم يكن للمرأة والداً أو مولودا أو شقيقا أو ابن أخٍ أو ابن أخت او من لم يبلغ الحلم او زوج [1] ، أما ما عدا ذلك الصنف من الناس ، فهو في نظر الاسلام يحمل طابع الحرمة ، منعا لتلاعب المتلاعبين وصدا لمكائدهم العابثة .

* ومما ورد عن سيرتها (ع) : ما جاء عن أسماء بنت عميس : أنها كانت عند فاطمة الزهراء ، إذ دخل عليها النبي (ص) وفي عنقها قلادة من ذهب أتى بها علي بن أبي طالب (ع) من سهم صار اليه ، فقال : « يابنية ، لاتغتري بقول الناس : فاطمة بنت محمد ، وعليك لباس الجبابرة » .

فقطعتها لساعتها وباعتها ليومها ، واشترت بالثمن رقبة مؤمنة ، فأعتقتها ، فبلغ ذلك رسول الله (ص) فسرَّ بعتقها ، وعلاه البشر .

---

(١) هناك أصناف أخرى نصت عليهم آية (٣١) من سورة النور المباركة وهم : ابن الزوج وأبوه ، والاخ ونساء المؤمنين والابله والامة وغيرهـــم .

* وعن عائشة تقول ـ حين ذكرت الزهراء ـ : « ما رأيت أصدق منها لهجة الا أباها » .

* روى الشيخ الصدوق في أماليه : إن فاطمة الزهراء (ع) قد صنعت مسكتين من فضة وقلادة ، وقرطين وسترا للباب ، وكان رسول الله (ص) في سفرٍ ، فلما عاد من سفره دخل عليها ولم يمكث عندها ـ طويلاً ـ كما كانت عادته ـ فخرج الى المسجد ، ففسرت فاطمة عليها السلام هذا الموقف على ان الرسول (ص) إنما تعجّل في مغادرة بيتها كان بسبب ما رآه من المسكتين والقلادة والقرطين والستر ، فنزعتها ـ جميعا ـ وبعثتها الى رسول الله ، وقالت لرسولها : قل له : « تقرأ عليك ابنتك السلام ، وتقول : اجعل هذا في سبيل الله ... » .

فلما أتاه بها وحدثه بما نبأت به الزهراء هتف محمد بقوله : « فعلت ، فداها أبوها ، فداها أبوها » . ثم عاد لزيارتها مستبشرا .

* وعن علي (ع) قال : « ان الزهراء استقت بالقربة حتى أثرت في صدرها ، وطحنت بالرحى حتى مجلت يداها ، وكسحت البيت حتى اغبرّت ثيابها ، وأوقدت النار تحت القدر حتى دكنت ثيابها ، فأصابها من أجل ذلك ضرر شديد » فقال لها علي (ع) يوما : « لو أتيت أباك ، فسألتِه خادما » ؟ فجاءت فوجدت عنده قوما ، فأستحيت وعادت فعلم النبي (ص) أنها جاءت لحاجة ، فغدا علينا ونحن في لحافنا فأردنا أن نقوم فقال : مكانكما ـ فجلس عند رؤوسنا ، فقال : يافاطمة ماكانت حاجتك أمس ؟ فأخبره علي (ع) بحاجتها . فأجاب رسول الله (ص) أفلا اعلمكما ما هو خير لكما من الخادم ، إذا أخذتما منامكما ، فسبّحا ثلاثا وثلاثين ، واحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبرا ، أربعا وثلاثين ، فأخرجت فاطمة رأسها وقالت : « رضيت عن الله ورسوله » .

* ورد عن أم سلمة : أن رسول الله (ص) حين تزوجها أمرها بتربية الزهراء (ع) ورعاية شؤونها لسدّ الفراغ الذي حدث في حياتها بعد أمها ، ولكن أم سلمة (رض) لم تستطع تحقيق مهمتها ، فصرحت أنها وجدت الزهراء (ع) أأدب وأدرى بشؤونها منها [1] .

(١) الدمعة الساكبة .

من بوادر المأساة

١ ـ الخطب الجلل
٢ ـ هبوب العاصفة
٣ ـ وقفة على أطلال فدك
٤ ـ الحجج الناصعة
٥ ـ تقييم الموقف

١ ـ الخطب الجلل

وعاشت يثرب اكثر من عشر سنين في أسعد أيام وأجلّها وأطهرها، فقد احتضنتها يدُ الوحي طيلة هذه الايام التي احتضنت هي فيها رسالة السماء ، ودافعت عنها ودفعت في سبيلها أبهض الاثمان لكي تعيش الرسالة وتسود وتخلد ، وانضمّت مكة ـ هي الاخرى ـ الى أختها يثرب في احتضان الرسالة الخاتمة ، وبأنضمام مكة الى أختها يثرب في احتضان الرسالة ، سقط آخر وثنٍ وطاغوت في الجزيرة العربية كلها ، وجلى آخر شيطان من أرض الجزيرة لتنمو فيها شجرة الايمان ، ترويها يد الوحي المقدس .

ووطّد محمد (ص) الأمن ، وثبت اركان العقيدة ، وأوضح معالم الرسالة مجملها وتفصيلاتها حيث أعلن المشرّع الاعلى سبحانه : « اليومَ اكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا .. » .

وباعلان السماء نبأ إكمال التشريع واتمام النعمة وارتضاء الاسلام منهجا خالدا للأرض ، باتت محافل الارض تتوقع نبأ جديدا يحمل الاسى في طياته ، نبأانتهاء السفارةسفارة محمد(ص) فيالارض لان دوره هذا ـ حسب تصريح القرآن الكريم ـ أوشك أن ينتهي لتبقى تعاليمه التي غرسها ، ولتبقى مدرسته التي أسسها تعمل عملها وتؤدي مهمتها وفاعليتها في خلق الانسان الرسالي الكريم .

وقد تأكد هذا من قرائن شتى كان بضمنها خطبة الرسول (ص)

الجامعة التي ألقاها بعد عودته من حجة الوداع حيث جمع الالوف من أبناء الامة الاسلامية ، وخطبهم خطبة جامعة ضمّنها كل ما حوته الرسالة المقدسة من أسرار ومعالم وقوانين واحكام ، وطالبهم مطالبة أكيدة بالالتزام بها ، ثم أكدّ إمامة علي (ع) ليقوم بمهمة التنفيذ لهذه الرسالة على الصعيد الاجتماعي والسياسي .

وهذه البادرة الجديدة من الرسول (ص) أكدت لمحافل الارض أن القائد المنقذ لابد مفارق .

وباتت الآذان تتسمع للنبأ وراحت القلوب تنبض نبضات كلها رعب ومخاوف ، وما أن انصرم أكثر من شهر واحد من السنة الحادية عشرة من الهجرة الا وألمّ بالقائد محمد (ص) حمىً شديدة رافقته اربعة وعشرين يوما .

ولكنه مع ذلك ما صحبه من أتعاب وانهيار في صحته لم يترك واجبه كرسول وقائد ، فكان يركز أقدام العقيدة ، ويبعث بالجيوش لتوسيع الرقعة الاسلامية وتحطيم الطواغيت وإذلالهم ليأخذ الاسلام مجراه وليظهر على الدين كله ، حيث قد بعث ــ في هذه الفترة من حياته ــ أسامة بن زيد في أضخم جيش إسلامي لدك صروح الدولة الرومانية التي تمثل معسكر الشرك الغربي ــ يومذاك ــ ولكن جيش أسامة قد أرجيء زحفه بسبب مواقف بعض الصحابة الذين احتجوا بصغر سنّ أسامة ، وأنه ليس أهلاً للقيادة ، ولكن الرسول (ص) ألزمهم بالالتحاق به ، فلم يفعلوا .

وبدأت صحة الرسول تنهار يوما بعد يوم ، وهنا يستولي الذهول على البيت الرسالي بأسره ، وفي طليعته الصديقة الزهراء (ع) فقد أحاط بها الحزن ولفها الاسى ، وكانت تزور أباها في مرضه وتسمع

أنينه وتوجعه فتبكي وتستولي عليها اللوعة والالم ، فيبكي لبكائها ويتألم لألمها ويخفي توجعه رأفةً بها وحدبا عليها .

وفي يوم من أيام مرضه يضمّ فاطمةَ بضعته إليه ويسر اليها حديثا ، فترفع رأسها ودموعها تتحدر على خديها ، واللوعة تأخذ مأخذها منهـا .

ويضمها ــ أخرى ــ اليه ويسرّ اليها حديثا ، فتبتسم ابتسامة ملؤها السرور والبشر ، ويمتلىء الحاضرون عجبا لهذا الحديث حيث تختلط دموع بأبتسامات وجزع بسرور ، ويسأل من شهدَ هذا الحدث من المسلمين عن سبب بكائها ثم فرحها ، ولكن بعد حين ، فتجيب ، أن أباها نعى نفسه لها فبكت ، ولكنه أردف فأخبرها بأنها ستكون أول أهل بيته لحوقا به فسرت لذلك وامتلأت فرحا .

ويدعو الرسول (ص) ولديه الحسن والحسين فيحضران أمامه وهما يمتلئان أسىً وكآبة لما ألم بجدّهما الحبيب محمد ، وهما واثقان أن هذه اللحظات ستكون آخر عهد يعيشان فيه حنان محمد وحدبه وشفقته عليهما فهو سينتقل الى مثواه الاخير وسيلتحق بدار الخلود ، فلابد لهما أن تجود عيونهما ــ ما شاءالله ــ من الدموع لانهما سيواجهان حياة جديدة خالية من عطف محمد الدافيء الرقيق .

ومهما يكن من أمر ، فانهما واثقان من أنهما لن يعيشا وعلى أحسن تقدير عيشة كالعيشة التي عاشاها في كنف أبيهما محمد .

ويضمهما محمد الى صدره ويقبلهما ، وعيناه تذرفان دموعا مشاركة لهما في بكائهما ولوعتهما .

ويشفق علي على أخيه رسول الله ، فيسرع اليهما لينحيهما عن جدّهما ، ولكن الرسول يواجه عليا بنبأ غيبي : « يا علي ، دعني

أشمهما ويشماني ، وأتزود منهما ويتزودان مني ، أما إنهما سيظلمان بعدي ويقتلان ظلما ، فلعنة الله على من يظلمهما » (١) .

وهنا يلتفت الى زائريه من المسلمين ليؤكد قيمة الحسن والحسين فضلاً عن أهل بيته ، فيقول : « أيها الناس ، يوشك أن أقبض قبضا سريعا ، وقد قدمت اليكم القول معذرة اليكم إلا أني مخلف فيكم : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ماأن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي » (٢) .

وحين يعلن الرسول (ص) أن مهمته في الارض قد انتهت ، وأنه يوشك أن يفارق أمته ، يزداد الحاضرون ألماً وحسرةً ويضجّ أهل البيت بالبكاء ، ويدعو محمد (ص) أخاه عليا ليضع رأسه في حجره وليفارق الدنيا وآخر عهدٍ به وصية علي (ع) .

وما هي إلا لحظات تنصرم حتى تعلن الارض نبأ وفاة محمد (ص) نبأ انقطاع الوحي عن الارض ، بل افتقاد المنقذ والمحرر للانسانية — برمتها — .

ويبلغ النبأ بضعته الطاهرة الزهراء (ع) فتهبّ مذهولة من شدة الصدمة العنيفة التي فوجئت بها ، فتضج بالبكاء وهي تردد : « وأبتاه ، الى جبريل أنعاه ، وأبتاه ، جنة الفردوس مأواه وأبتاه ، اجاب ربّاً دعاه ... » .

وراحت تردد هذه الكلمات بحرقة وألم — شديدين — وتعيش فاطمة المأساة بكل أبعادها ، فقد رحل عنها دفء المودة والحنان ، رحل عنها الحبيب محمد ، وها هو مسجى بين يدي المسلمين ، وسوف يحمل — بعد مدة — الى مثواه الاخير حيث يغيب شخصه الكريم عن

---

(١) الدمعة الساكبة / حياة الامام الحسن (ع) ج ١

(٢) المجالس السنية .

عينها ، يغيب الى الابد ، وسيكون اللقاء في دار الخلود والنعيم .

رسمت فاطمة (ع) هذه الحقائق أمام ناظرها وتصورته في ذهنها فاندفعت تشفي غليلها ولكن بحسرات وآهات انعكست لوعة وبكاءً ودموعا غزيرة . ثم اندفعت تنسج من حزنها شعرا تتغنى به فاذا بها تقول :

أغبرَّ آفاق السماء وكورت شمس النهار وأظلم العصران
والارض من بعد النبي كئيبة أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها وليبكه مضرٌ وكلُّ يماني

وهذه الابيات تصوّر مدى اللوعة ومدى الحزن الذي يرتسم على شخصية الزهراء (ع) فهي ترى أن الدنيا كئيبة فاقدة للنور مظلمة جوانبها تعيش حالة من الاضطراب والرجفان .

وحين تتصور فاطمة (ع) الحياة هذا التصور بعد ابيها ، إنما تتصور حقيقة لاخيالاً أو مبالغة ، لان أباها كان لهذا الكوكب الارضي ومَن فيه وما فيه سراجا وهّاجا أضاء لها السبيل وخلصها من التيه والشرور ، وعلمها دروبَ السعادة والسلام .

فحقيق بفاطمة وحق لها أن تقول فيه ما تقول .

ويتولى وصيه (علي) غسله وتجهيزه ، وجاء ــ بعدئذ ــ وقت الصلاة عليه حيث يدخل علي ، وجماعة من أهل البيت ــ عليهم السلام ــ ويقفون بأزاء الرسول حيث يتلو علي قوله تعالى : « ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذينَ آمنوا ، صلّوا عليه ، وسلّموا تسليما » ويردّد من حضر الآية ــ نفسها ــ ، ثم يأمرُ علي بقية المسلمين بالدخول على الرسول جماعةً بعد جماعة يرددون الآية نفسها ، وكانت تلاوة هذه الآية على الرسول هي بمثابة الصلاة عليه .

ثم تولى علي وبعض أهل البيت (ع) مواراته في قبره الشريف وبعد دفنه ازدادت أتراح فاطمة وأخذ الاسى مأخذه من نفسها ، فراحت تنشد الابيات المحزنة لتتعزى بها :

قلْ للمغيبِّ تحتَ أطباق الثرى ... إن كنت تسمع صرختي ونداثيا
صبَّت علي مصائب لو أنهـــا ... صبَّت على الايام صرن لياليـا
قد كنت ذات حمى بظل محمدٍ ... لا أختشي ضيما ، وكان جماليا
فاليومَ أخشع للذليـــل وأتقي ... ضيمي ، وادفع ظالمي بردائيـا
فاذا بكت قمرية في ليلهـــا ... شجنا على غصن بكيت صباحيا
فلأجعلنّ الحزن بعـدك مؤنسي ... ولأجعلنَّ الدمع فيك وشاحيا
ماذا على من شمَّ تربـــة أحمدٍ ... أن لايشمَّ مدى الزمان غواليا

نعم هكذا عاشت فاطمة مأساتها ، فهي قد تجلببت بجلباب من الحزن ، وجعلت منه سلوةً لها ومؤنسا ما دام شخص محمد قد غيَّب في جدثه ، وقد تحقق ما أعلنته فاطمة ، وتغنت به ، حيث روي عنها : أنها ما وُجدت مبتسمةً بعد أبيها ــ على الاطلاق ــ حتى زارها الموت حيث التحقت بعميدها محمد ، ليكفكف دموعها ، ويضمدَّ جراحها .

٢ ـ هبوب العاصفة

ودعت الامة قائدها الحبيب محمدا (ص) ، وانقطع الوحي عن زيارتها ، ولم يبق لديها الاّ أن تلتزم بحبل الله الوثيق : كتاب الله العزيز وعترة فقيدها الغالي محمد ، لان أهل البيت : هم ترجمان الوحي ، والصورة الحية للرسالة الاسلامية .

ولكن الامة فوجئت باعصار من المحن كادت أن تحلّ بها قارعة لولا رحمة الله سبحانه بها .

وقد كان في طليعة هذه المحن الكثار ـ التي هزّت كيان الامة ـ : ـ اقصاء وصي رسول الله ـ علي بن أبي طالب ـ عن مركزه القيادي ودوره الطليعي في الامة .

ولم يقف الامر عند هذا الحدّ ، وإنما عوملت بضعة المصطفى ـ هي الاخرى ـ معاملةً قاسية . فبدلاً من ان تكفكف السلطة الجديدة دموع فاطمة وتضمد جراحها بعدما ألمّ بها من ألم وكآبة بعد فقدها لركنها الوثيق أبيها محمد (ص) ، فبدلاً من ذلك ، فان السلطة الجديدة وقفت من فاطمة موقفا مخزيا ترك في جبين الامة لطخةً سوداء الى يوم القيامة ، لان فاطمة التي أراد لها الرسول (ص) أن تكون مدرسة ومنارا تشع على العالم الهداية والنور أصبحت تعيش وطأة من العسف والهوان بعد أبيها .

ونحن ـ انطلاقا من المصلحة الاسلامية العليا ـ لا نريد في حديثنا هذا ـ كما يبدو أول وهلة ـ أن نثير قضية مذهبية أو عصبية

أو غير ذلك ، وإنما نريد أن نتحرى الحقيقة ونجلي قضية تأريخية احتلت عددا ضخما من صفحات تأريخ الامة الاسلامية . ونحن حين نجلي هذه الحقيقة أنما نبسطها بصفتها التأريخية والفكرية لان مثل هذه الصفحات من تأريخنا لاتمنعنا ــ نحن المسلمين ــ أن نجتمع على صعيد واحد بعيدا عن الفرقة والشنآن لانها أصبحت قضية نظرية تاريخية ــ فحسب ــ في واقعنا المعاصر .

ونحن حين نثير مثل هذه القضية لاثيرها بصفتها مثار نزاع بين جماعتين أسلاميتين ، وإنما نوردها لان طبيعة الموضوع تفرض ذلك ، فالحديث عن الزهراء (ع) ، وليس أحدٌ من المسلمين ينكر ــ تأريخياً ــ ما أصابَ فاطمة بعد أبيها ، ولكن الاختلاف ــ فقط ــ يتناول تفسير تلك الاحداث المريرة وما صحبها من ملمات .

ولقد واجهت الصديقة الزهراء (ع) حادثين بعد فقد أبيها ، ولكنهما متصلان أتصالاً وثيقا ببعضهما ، وكانا بمثابة العاصفة الهوجاء التي ألمّت بالامة الاسلامية بعد قائدها محمد .

أولاهما ــ إقصاء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) عن مركزه القيادي في الامة الاسلامية . إذ كانت السيدة الزهراء (ع) ترى في هذه الحادثة مأساة كبرى تعيشها الرسالة الاسلامية والامة بصورة عامة ، لان اقصاء علي عن دوره الطليعي لم يكن مجرد تغيير إنسان ، وإنما كان بمثابة خروج عن الخط الذي رسمته السماء لأهل الارض ، وستجني الامة ثمارهُ السيئة عاجلاً ، لان الامة سيتولاها رجال لايملكون من المؤهلات الكافية التي ترفعهم الى مستوى القيادة والحكم في الامة ، وبالتالي سيتحول الحكم الى مجالات للوصول الى اطماع شخصية ومصالح آنية على حساب الشرع المقدس .

ومن ثم ستجني الامة الفرقة والاختلاف . وفعلا وقع ذلك بعد فترة وجيزة من تاريخ الامة في وقت كانت فيه بأمسّ الحاجة الى مَن يحاكي الرسول (ص) في قيادته وحكمه ، ولا وجود لمن يناظر عليا في ذلك اطلاقا ، وفضلاً عن ذلك ، فانّ أمير المؤمنين (ع) لو انضوت الامة تحت لوائه لسدّت كل ثغرة في وجه الاختلاف والانحراف الذي طرأ على الامة ــ فيما بعد ــ لان عليا (ع) خريّج مدرسة الرسالة والوحي ، وهذا ما جعل فاطمة الزهراء (ع) تقف موقفا مشرّفا في ذلك الظرف الدقيق من حياة الامة المسلمة في جانب علي ، لا لأنه بعلها وإنما حدا بها الى أن تقف ذلك الموقف الصلب وأن تتحمل المعاملة القاسية من الحاكمين : أنها وضعت نصب عينيها النقاط التالية :

١ ــ انها ترى عليا أفضل شخصية عرفتها الامة بعد رسول الله (ص) وهو أقدر من سواه على تطبيق الرسالة وحفظها ونشرها في بقاع الارض ، ولعلها تستدل على ذلك بقول الرسول الاكرم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » وقوله : « من أراد أن يحيا حياتي ، ويموت موتي ، ويسكن جنة الخلد التي وعدني ربي ، فليتولّ علي بن أبي طالب ، فانه لن يخرجكم من هدى ولن يدخلكم في ضلالة .. »[1] .

٢ ــ انها بنت الرسول الذي عاش من أجل الرسالة ، ولذا فقد رأت أنها ملزمة قبل غيرها بحفظ الشرع الاسلامي المقدس من التلاعب ، كما انها أصبحت ملزمة بحفظ الامة التي صنعها الوحي من الاختلاف والوهن مما جعلها تعمل على تحرّي الاسباب التي تكسب الامة والشرع مناعة تجاه الملمات ، ولكنها لم تجد غير علي بن أبي طالب أهلاً

(١) المراجعات / شرف الدين نقلاً عن الحاكم والطبراني في الكبير وغيرهما .

لذلك ، كما اتضح من سابق صفاته الجليلة .

٣ ــ أنها ترى أن الامة ما لم تلتزم جانب علي ، فلسوف تخالف معين الرسالة الاسلامية بمخالفتها رسولها القائد محمد (ص) وهي ترى بعد أن صدى صوته مازالت تردده الآفاق يوم أعلن مراراً وتكرارا: « إني خلفت فيكم الثقلين : كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا ... » وقوله : « من كنتُ مولاه فهذا علي مولاه .. » وقوله مخاطبا عليا : « أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى الا أنه لانبي بعدي .. » وهي ترى أن هذه الاقوال حجة فما لم تلتزم الامة بروحها خرجت عن طاعة الله ورسوله وكتاب الله يهتف : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فأنتهوا .. » فان لم تلتزم الامة بهذه الاقوال خرجت عن حصن الطاعة لله ورسوله ، بل خرجت عن حكومة الله تعالى في الارض ، وهذا ما جعل الصديقة الزهراء (ع) تعيش المأساة بكل أبعادها البعيدة والقريبة يوم رأت عليا يقصى مرغما عن مكانه الذي بوأه الله فيه .

وثانيهما : تأميم قرية فدك من قِبل الحكومة القائمة ؛ وهذه الحادثة جعلت فاطمة (ع) تجد فيها خير متنفس لها لإلقاء الحجة على الامة وتذكيرها بأيام محمد (ص) وقراراته بهذا الشأن : « شأن القيادة وشأن الالتزام بنقاء الشريعة » .

ونحن لانريد أن نتعرض لتصريحات فاطمة الزهراء (ع) بهذا الشأن قبل أن نبين حقيقة فدك ، ونحددَ أبعاد مشكلتها واحتجاجات الصديقة الزهراء بشأنها .

٣ ـ وقفة على أطلال فدك

وفدك ـ هذه ـ أرض حجازية تقع على مقربة من مدينة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ، وهي أرض زراعية غنية بمائها ونخيلها[١] . وكانت ملكية لليهود حتى السنة السابعة للهجرة ، حيث أصبحت ـ بعد هذا التاريخ ـ دارا للأسلام ، وذلك بعد أن تجلّت مكائد اليهود ودسائسهم ونقضهم للعهود التي أبرمها الرسول (ص) معهم .

وحين ظهر سوء طويتهم واتصالاتهم المفضوحة مع المعسكر الوثني واشتراكهم في حرب المسلمين الى جانب قوى الضلال ، صمم الرسول (ص) على محاربتهم لانهم أصبحوا خطرا فعليا على الدولة الاسلامية الفتية وركيزة من ركائز التآمر على سلامة الكيان الاسلامي .

وحين علم اليهود بتصميم النبي وإعلانه محاربتهم ، استحوذ عليهم الذعر ودبّ الفزع في نفوسهم قبل أن يسير اليهم الرسول بخيل أو رجال ، وقد طلبوا من رسول الله الصلح تاركين له قرية (فدك) .

ولمّا كانت الارض التي يفرّ عنها أعداء الاسلام دون أن يوجف عليها بخيل ولا ركاب ينطبق عليها حكم ـ ملكية الدولة[٢] ـ في الاصطلاح الاقتصادي ـ أو الانفال في الاصطلاح الفقهي ـ فقد أصبحت أرض فدك ملكا للرسول (ص) بصفته رئيس الدولة الاسلامية ، وحكم مثل هذه الارض ليس موضوعا اجتهاديا . وإنما هو موضوع في إطار مذهبي رصين ، رسم القرآن الكريم حدوده وطابعه كما ورد ذلك في

---

(١) الاحتجاج / الطبرسي . (٢) اقتصادنا / الصدر .

قوله تعالى : « وما أفاءَ الله على رَسوله منهُمْ فما أوجفتُم عليه من خيلٍ ولا ركابٍ ، ولكنَّ الله يُسلِّط رُسلَه على مَن يشاء ، والله على كل شيءٍ قدير . ما أفاءَ الله على رَسوله من أهل القرى ، فلله وللرَّسول ولذي القُربى واليتامى والمساكين وابنِ السبيل ..» (١)

ولكن (فدك) لم تبق مجرد ملكية للدولة الاسلامية ، وأنما أعطت السماء فيها تعليما خاصا جعل الرسول يهبها لبضعته الزهراء (ع) وذلك تطبيقا لقوله تعالى : « وآتِ ذا القربى حقه ... » *

ولأن الزهراء تمثل طليعة قربى محمد (ص) ولذا وهبها قرية

---

(١) سورة الحشر ، آية / ٦ ــ ٧ .

* يقول ابن كثير في تفسيره : « أن القائلين بأن آية « وآت ذا القربى حقه .. » هي التي أوحت للرسول (ص) في منح (فدك) للزهراء على جانب كبير من الخطأ لان هذه الآية من سورة الاسراء ، وسورة الاسراء مكية ، وقضية فدك بكل أبعادها وقعت في المدينة ، ولعل هذا الادعاء من وضع الرافضة » .

وأنا أعجب من هذا القول الذي يصدر من عالم كبير كأبن كثير ، ويشتدّ عجبي في استدلاله على أن هذه الآية لايستدل بها ما دامت من سورة الاسراء المكية ، علما بأن كثيرا من السور المكية تنطوي على آيات مدنية ، وهذه السورة (سورة الاسراء) بضمنها ، فهي تحتوي على عدد من الآيات المدينة كهذه الآية عينها «وآت ذا القربى حقه ..» . كما ورد ذلك في تفسير الكشاف للزمخشري ، وفي ظلال القرآن / سيد قطب . وليعلم ابن كثير : ان هذه الآية ليست ــ وحدها ــ آية مدينة في هذه السورة ، بل هناك الى جانبها آية ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٧ و ٧٣ الى آية (٨٠) .

فدك تأكيدا لمدلول التشريع الالهي المبارك .

وما أن ودعت الامة الاسلامية قائدها الحبيب محمدا الا وأعلنت الحكومة الجديدة على لسان زعيمها (أبي بكر) نبأ تأميم فدك وإعادتها ملكية للحكومة ، بعد أن كانت لفاطمة في وقت قد صدر فيها حكم إلهي على لسان محمد الذي وهبها للزهراء .

ولكن هذا القرار الذي اتخذته الحكومة الجديدة حمل الزهراء عليها السلام على عدم الاعتراف به ، فهبّت لنقضه أمام الامة الاسلامية وممثلي الحكومة لفضح بداية التلاعب على حساب التشريع الإلهي المقدس .

٤ ـ الحجج الناصعة

وغادرت فاطمة الزهراء (ع) بيتها وسط جمع من النساء الفضليات لكي تجلب النظر وتثير الاهتمام للجماهير المسلمة ، فدخلت المسجد ـ مسجد أبيها (ص) وهنا بدأت تلقي حججها بأسلوب ملؤه حكمة وروية حيث قابلت أبا بكر بكلمة تعارف الناس عليها ، فخاطبته وكأنها تستفسر عن شيء تجهله : « يا أبا بكر من يرثك اذا مت ؟ » .

قال : أهلي وولدي .

قالت : فمالي لا أرث ابي رسول الله ؟ .

وحين فوجيء أبو بكر بهذه الحجة الناصعة راح يبحث عن مبرر لتأميم إرثها من أبيها .

فقال : يابنت رسول الله ، إن النبي لايورّث (١) .

وقيل : أجابها : « إن الانبياء لاتورث ، ماتركوه فهو صدقة » . واستشهد بحديث الفرد عن رسول الله فقال : « سمعت رسول الله يقول : لا نورث ماتركناه فهو صدقة » .

وهو حين تشبث بهذا الحديث أراد أن يبرر فشله أمام الحجة التي ووجه بها ، وهو يعلم بمكانة الرسول (ص) لدى فاطمة (ع) فأراد أن يبطل حجتها بحديث رواه عن رسول الله (ص) ولكن أبا بكر لم ينته من إلقاء كلماته الدفاعية حتى فوجيء بحجة أخرى أبلغ من سابقتها حيث ردت عليه ابنة المصطفى (ص) بقولها : « ما شأن

(١) كشف الغمة للاربلي .

سليمان ورث داود ؟ » . انطلاقا من قوله تعالى : « وورث سليمان داود » .

ثم استطردت قائلة : « ألم يقل زكريا : (. . . . اني وَهَن العظم مني واشتَعلَ الرأسَ شيبا ، ولم اكن بدعائك ربَّ شقيا . واني خفت الموالي َ من ورائي ، وكانت امرأتي عاقرا فهبْ لي من لدنكَ ولياً ، يرثني ، ويرث من آل يعقوب ، واجعله ربَّ رضيًّا » [1] .

وحين تلت هذه الآيات الكريمة فنَّدت قول الخليفة لانها اثبتت له إثباتا لايتحمل أي ريب : أن سليمان ورث أباه داود ، مع ان داود كان نبياً ، وسليمان حين ورث أباه ورثه بالملك لا بالنبوة لان النبوة لاتورث ، فالنبوة لو ورثت لورثناها من أبينا آدم خلفاً عن سلف .

والآية الثانيـة التي استدلت بهـا تحمل نفس المفهوم فزكريا ـ عليه السلام ـ حين طلب الى ربه أن يرزقه ولدا لكي يرثه ، إنما أراد بالارث هنا ارث المال ، ولذا طلب من ربه أن يكون ولده مرضيا ، وليس من المنطق ـ كما تدل الآية ـ : ان زكريا أراد من ربه أن يرزقه ولدا يرثه في النبوة بدليل أنه ـ بعد أن دعاه ان يرزقه هذا الوارث ـ طلب اليه أن يكون مرضيا ، لانه اذا أراد من ربه أن يرزقه ولدا يرثه في نبوته ، فهـل يكون هـذا النبيّ غير مرضي حتى يطلب ان يجعله مرضيا [2] .

وهكذا ، فان الآية تدل ـ دلالة واضحة ـ على أن الارث هنا إرث مادي فحسب ـ .

وحين واجه أبو بكر هذه الحجة البالغة ، عرف أن الزمام قد أفلت

---

(١) سورة مريم آية / ٣ ـ ٦ .

(٢) النص والاجتهاد / شرف الدين .

من يده ، فأصرّ على ان النبيّ لا يورّث ، ولكن إصراره هذا على كون الرسول لايورث إصرار في غير محله بعد أن فوجيء بحجج الزهراء البالغة فلابد له من حجة أخرى يدعم بها موقفه هذا ، فقال : « اني لأعلم ان شاء الله أنك لن تقولي الا حقا ولكن هاتي بينتك » .

فأسرعت (ع) لتأتي بعلي بن أبي طالب (ع) وأم أيمن بركة بنت ثعلبة ، فشهدا : أن (فدكا) قد أورثها الرسول لفاطمة ، ولكنّ أبا بكر لم يعترف بهذه الشهادة ، مدعيا أن نصابها غير كامل ، فطالب بامرأة أخرى أو رجل آخر ، ولكن فاطمة لم تأت بغير ذين .

وأنا اعجب من ابي بكر ــ رض ــ كيف لايتخذ من شهادة علي بن أبي طالب (ع) حجةً على صحة موقف فاطمة ــ على الاقل ــ في وقتٍ هو يعلم قيمة علي عند الله ، ورسوله ، فهو هارون الامة والمطهّر من الرجس ، ومدينة علم الرسول ، بغض النظر عن الصديقة الزهراء ــ أم أبيها ــ وبضعته والمطهّرة من الرجس . والامرأة الصالحة ــ أم ايمن ــ المبشرة بالجنة (١) .

ومن المؤسف حقا أن أبا بكر حين يعلن : أن معاشر الانبياء لايورثون ، يأتي بعائشة وحفصة لتشهدا له في صحة الحديث ، ولكن لا أدري لماذا لاتوازى شهادة علي (ع) شهادة إحداهما ؟ فضلا عن شهادة أم أيمن ــ المرأة الصالحة ــ .

والى جانب هذا كله : أن مطالبة أبي بكر فاطمة الزهراء بأحضار الشهود ليست منطقية لانها مالكة لفدك فعلا ، وأبو بكر ادعى ادعاءً أنها لاحق لها في تملكها ، ولذا أصدر حكم التأميم بشأنها مع أن

(١) ورد في ذخائر العقبى : ان الرسول (ص) قد بشر أم أيمن بالجنة .

القاعدة المنطقية الثابتة تقول : « البينة على من أدعى » فلماذا لم يأت ابو بكر بالبينة ؟ وقت كان مسؤولا بأتيانها عقلا ومنطقا وعرفا .

لكن الخليفة مع هذا قد أصرّ على عدم اقتناعه بشهادة علي وأم أيمن .

وللقارىء الكريم أن يحكم على هذه الواقعة المعروضة أمام عينيه وليتحرّ الحقيقة بنفسه .

ويقيني : أن الحجج التي أدلت بها الزهراء (ع) أمام الخليفة أبي بكر (رض) كانت كافيةً لأدانته وتغيير موقفه منها . ولكنه ـ آسفا ـ تمادى بعدم اعترافه بحقها في ارثها من أبيها .

والى جانب مواقفها وحججها ـ هذه ـ نورد بعض المؤاخذات الاخرى على موقف الخليفة أبي بكر ، تجليةً للحقيقة وتأكيدا للمنطق فنقول :

لو فرضنا ـ جدلاً ـ أن الرسول (ص) لم يمنح فاطمة الزهراء فدكا بصفتها من ذوي القربى ـ حسب مدلول آية ـ « وآت ذا القربى حقه » . وإنما منحها فدكا بصفته حاكما للدولة الاسلامية ، ورئيس الدولة الاسلامية له الحق في التصرف في ملكية الدولة طبقا لما يراه وفي أطار المصلحة الاسلامية العليا ، وقد رأى أن يمنح فاطمة الزهراء (ع) كأن تكون من سائر الناس ـ فدكا ـ كحق خاص لاملكية خاصة لان ملكية الدولة ـ الانفال ـ لاتملك ملكية خاصة [1] .

ولنفرض أن فاطمة الزهراء (ع) قد تصرفت بحقها في الارض دون أن تخل بشروط سيطرتها عليها لان من شروط تملك الفرد المسلم للارض أن يقوم بعمارتها : من زراعة أو اقامة مشروع نافع عليها ، أما اذا لم

(١) اقتصادنا : ج ٢ / محمد باقر الصدر .

يؤدِ حق ما حازه بأمر الدولة الاسلامية من الانفال فان للدولة الحق في سلبه منه لتمنحه لمن يقوم بدور الاحياء الفعلي للارض ، وهذا يعني : أن الارض التي تعود ملكيتها للدولة في المذهب الاقتصادي الاسلامي وحازها بعض الافراد ، فان عقد الحيازة يظل قائما ما دام الفرد المسلم قائما برعاية الارض وعمارتها ، أما اذا لم يؤدِ هذه الوظيفة فان العقد ينفسخ بعدها ليستثمر الارض منتج آخر [1] . وفاطمة الزهراء (ع) قد أثبتت الادلة التاريخية : انها كانت ملتزمة التزاما تاماً بشروط حيازة الارض ، فقد كان لها وكيل لادارتها وزراعتها والعناية بها فما هي الاسباب التي دعت أبا بكر أن يسلب هذه الارض منها ، وهي ما زالت قائمة بشروط التملك والحيازة لها طبقا لما رسمه الاسلام من شروط لحيازة الارض التي تصدق عليها صفة ملكية الدولة « الانفال » ؟

أليس ذلك تلاعبا على حساب المذهب الاقتصادي الاسلامي ، بل على حساب الشرع المقدس ؟ الذي لايسمح بتأميم حقوق المواطنين الخاصة : « الناس مسلطون على أموالهم ، لايحل مال امرىء الا عن طيب نفسه » .

علما بأنه قد علل سلبه لارضها بقوله : « ان الانبياء لا يورّثون» .

وهذا ما يلفت النظر الى أن أبا بكر لو كان يعلم ان المصلحة الاسلامية العليا تقتضي هذا التأميم والمصادرة لصرّح به ، ولكنه لم يجد مبررا لهذا القرار ، فأعلن عدم جواز تورث الانبياء .

وبعد إجلاء هذه الحقيقة فأنا غير واثق ــ مطلقا ــ من أن أبا بكر (رض) كان جاهلا من أن الحق كان بجانب الصديقة فاطمة ،

(١) اقتصادنا ج ٢ .

لاسيّما وهو يمتاز بحنكته وعبقريته ، فمن المستحيل أن تغيب عنه تلك الحقائق الناصعة ، ولكنه لايستطيع أن يدلي بتصريح يصدق فيه الزهراء (ع) .

وعقيدتي أن أبا بكر كان مقيدا بقرارات السقيفة التي أوصلته للحكم ، وهو إن تخلى عنها فأعترف لفاطمة بفدك ، لنحّاه من جاء به عن المنصب ، كما أن إعتراف ابي بكر لفاطمة بحقها في فدك سيجرّه الى الاعتراف بكل مطاليبها المقبلة ، وفي طليعتها أحقية علي (ع) في قيادة الامـة الاسلامية ، ولذا فان حنكة الخليفة جعلته يصنع شتى المبررات لعدم الاعتراف لفاطمة بحقها في فدك ، لان ذلك سيكون اعترافا ضمنيا بصدق لهجة فاطمة في كل مطالبها المقبلة .

وهكذا فان الباحث التأريخي المنصف يجب أن لايحمّل تبعات المأساة الخليفة أبا بكر بقدر ما يحمّله مؤتمر السقيفة ـ ذاته ـ لانه هو المسؤول ـ أولاً وآخرا قبل غيره ـ عن كلّ ما حدث بعد الرسول (ص) .

٥ ـ تقييم الموقف

وقد ساد الاعتقاد لدى البعض من المؤرخين من أن أبا بكر (رض) إنما أصرّ على منع الزهراء (ع) حقها في فدك لانه خشي أن يستعمل لاغراض سياسية ، حيث أن عليا وفاطمة يستغلانه في تقوية حزبهما المعارض لاسقاط حكومة الخليفة أبي بكر ، ولذا استعمل الخليفة معهما الحرب الاقتصادية لاضعاف الحركة المعارضة .

وهذا الرأي ـ في عقيدتي ـ قد أخطأ الحقيقة ، وهو لعمري رأي اريد به تبرير موقف الخليفة والتخفيف من شدة النقد التي ووجهت سياسته بها ، ولأيقاف سيل المؤاخذات التي شنت على موقفه الصلب من الصديقة فاطمة على ما حملته من حجج ناصعة وأدلة صائبة ، وأنا حين أشك في صحة هذا الرأي لا اقف ـ فقط عند حدود الشك وحده ـ وإنما أؤكد رأيي بالنقطتين الآتيتين :

١ ـ ان مما لاشك فيه أن علي بن ابي طالب لايمكن أن يطلب غاية نبيلة بسبُل معوجة وأساليب ، ملتوية ، وهو الذي يحمل شعار : « لايُطاع الله من حيث يعصي » .

فهو لايمكن ان يطلب الوصول الى قيادة الامة عن طريق ابتياع ضمائر أو دجل ، أو ضم أصوات الى جانبه حتى يستفيد من فدك اقتصاديا في تنشيط حركته ، بغية عزل الحكومة يومذاك .

لكنه أراد من فدك حين تطلبها فاطمة قوتا لهما ولأولادهما ليس غير ، وليس أدلّ على ذلك من سياسة علي (ع) أيام حربه مع معاوية، فقد كان بوسعه أن يشتري الضمائر ويجمع المرتزقة لتعزيز موقفه في

المعترك ، ولكنه لم يفكر بذلك ـ اطلاقاً ـ لانه يرى فيه ارتكابا لعمل يتنافى وشرع الله سبحانه في وقت كان بيت المال تحت تصرفه ، فكيف يتخذ من فدك أسلوبه لاعزاز حركته ؟

٢ ـ أكدت الادلة التأريخية ان الصديقة الزهراء (ع) حين رجعت من مناظراتها للخليفة ابي بكر وجدت عليا ، وهو يتوقع عودتها بفارغ الصبر ، وحينئذٍ ألقت كلمتها أمام علي لتوضح له نتيجة جولتها مع الخليفة (رض) حيث أكدت له : ان أبا بكر قد ردّها ولم يعبأ بحججها ، وقد كانت تتحدث لعلي بحرقة أظهرت فيها غضبها وسخطها على الحكم القائم .

ولما أختتمت كلمتها بقولها : « [1] ويلاي في كل شارق ، ويلاي في كل غارب . مات العَمد ووهن العضد ، شكواي الى أبي ، وعدواي الى ربي اللهم أنك أشدّ منهم قوةً وحولاً وأشد تنكيلا » .

وتألم علي لحديثها فراح يستعمل كل ما في وسعه للتخفيف من غضبها وألمها فخاطبها بقوله : « لاويلَ لك بل الويل لشانئك ، ثم نهنهي عن وجدك يا أبنة الصفوة ، وبقية النبوة ، فما ونيت عن ديني ولا أخطأت مقدوري ، فان كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون وكفيلك مأمون ، وما أعدّ لك أفضل ممّا قطع عنك فأحتسبي لله ... » .

ومخاطبة علي لفاطمة بقوله : « فان كنت تريدين البلغة ، فرزقك مضمون ، وكفيلك مأمون » .

دليل على ان عليا وفاطمة ما أبتغيا وراء فدك الا قوتا لهما ولاولادهما ، وهذا ما يتضح من قول علي (ع) لها حيث يؤكد أن رزقها مضمون ، وإن حاول الحاكمون منعه وأنه سيضمن عيشها وعيش أولادها ما دام

---

(١) كشف الغمة .

حياً وتصريح علي ــ هذا ــ يكشف لنا الغاية التي تنشدها فاطمة من المطالبة بفدك ، فأنها لو كانت تبتغي هدفا سياسيا وراء الحصول على فدك لخاطبها علي" ــ بعد عودتها من مناقشة الخليفة ــ بأسلوب غير هذا ولجرى بينهما حديث يخالف هذا .

ونستطيع ان نقرر هذه الحقيقة اذا أستعرضنا حديثا للامام علي بشأن فدك وفي أيام خلافته وبعد وفاة الصديقة الزهراء (ع) حيث يوضح فيه أن فدكا كانت في حيازته وأهل بيته تدرّ عليهم الرزق : « بلى كانت في أيدينا فدك من جميع ما أظلته السماء ، فشحّت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس قوم آخرين ، ونعم الحكم الله وما أصنع بفدك وغير فدك والنفس مضانها في غدٍ جدث » .

ألا تراه ــ أخي القاريء ــ لايقيم وزنا لفدك ولا لغير فدك ، وهمه أن يصلح الدنيا بعدله وأن يتهيأ لحياته الاخرى بخير زاد لكي يلقى ربّه بنفس راضية مرضية ، فهل تنتظر من شخص هذا مقياسه في الحياة ــ الفوز برضوان الله ــ : أن يشتري الضمائر ويجمع الاصوات حوله لكي يصل الى الحكم ، وهو القائل (ع) : « ولا لفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز » .

وهو القائل أيضا : « والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية أربة » .

وهذه التصريحات من علي (ع) تؤكد لنا : أنه لايعبأ بالخلافة ، بل بالدنيا ــ برمتها ــ فكيف يهتم بالوسائل التي توصل اليها بل كيف يمكن أن يسخّر ما تدره فدك من أرباح لاغراض سياسية ؟ .

وبعد كل هذا ربمّا يعترض البعض على موقف فاطمة فيقول : لماذا ــ إذن ــ تقف فاطمة هذا الموقف الصلب في مطالبتها بفدك ،

فلو لم يكن هناك هدف آخر تبتغيه من ورائه ، لما طالبت هذه المطالبة الحقيقية به ؟

ولأجل أن نبرز الحقائق التي دفعت الصديقة فاطمة الزهراء (ع) للمطالبة بفدك ، نضع أمامنا النقاط الآتية :

١ ــ إنها رأت ان تأميم (فدك) قد هيأ لها فرصة ذهبية في الادلاء برأيها حول الحكومة القائمة وكان لابدّ لها أن تدلي بتصريحاتها أمام الجماهير ، وقد هيأت لها قضية فدك هذه الملابسات المناسبة ، فحضرت (دار الحكومة) في المسجد النبوي وألقت بتصريحاتها التي لاتنطوي على أي لبس أو غموض .

٢ ــ تبيان أحقية علي في قيادة الامة بعد الرسول (ص) وقد تجلى ذلك في خطبتها التي ألقتها في مسجد ابيها (ص) على مسمع ومرأى من المسلمين وبضمنهم الحكومة الجديدة ، فكان من بعض أقوالها : «أم انتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟» .

وقولها : « وابعدتم من هو احق بالبسط والقبض . » حيث أوضحت أن عليا (ع) أعلم الناس بعد محمد بمعرفة الرسالة واحكامها وقوانينها ، وهو لذلك أحق برعاية شؤون الامة التي صنعها الوحي المقدس .

٣ ــ كشف ألاعيب الحكومة الجديدة على الشرع المقدس واجتهاداتهم التي لاعلاقة لها بأهداف الرسالة وتزمتهم وإصرارهم على آرائهم بعد بطلانها ، وقد اتضح ذلك كله في حججها التي واجهت أبا بكر بها بشأن فدك كما رسمناه سابقا .

وهذه النقاط الثلاث هي التي استهدفتها فاطمة (ع) في مطالبتها الحثيثة بفدك ليس غير ، وليس لها وراء ذلك هدف ماديّ رخيص كما

يعتقد البعض من مؤرخي حياتها ، فهي ـ لعمر الحق ـ قد تصرفت ما من شأنه ان يحفظ الرسالة من شبح الانحراف الذي تنبأت بوقوعه بعد انتخاب الحكومة الجديدة فأتخذت من فدك خير فرصة لخدمة المبدأ وإلقاء الحجة على الامة تأدية للمسؤولية ونصرا للرسالة وحفظا لبيضة الاسلام .

* * *

في ذمة الخلود

غاب شخص محمد (ص) عن عيني فاطمة بضعته ، ودفنت معه تلك العواطف الفيّاضة التي كان يفيضها عليها .

غاب عنها مَن كان يكثر تقبيلها حتى بعد زواجها من علي (ع) ، وغاب عنها مَن كان يدعوها (أم أبيها) .

لقد ودعت كل ذلك بعد أن ودّعت أباها الحبيب ، وأدلهمّ الخطب عليها ، وتغيّرت الاجواء . وتلبّدت الآفاق ــ آفاق حياتها ــ بمحن كأنما هي على موعد مع موت الرسول وغياب شخصه الكريم .

وكان في طليعة ما فوجئت به فاطمة الزهراء (ع) بعد فقدها لأبيها ــ : إقصاء بعلها ووصيّ أبيها علي بن أبي طالب (ع) عن مركزه القيادي في أمة الوحي .

وتجتمع المآسي على قلب فاطمة ، فتحرم من ملكيتها التي وهبها أبوها لها حيث تصادرَ ويجري عليها حكم التأميم الجائر ، وهكذا تتجسّد المأساة على الصديقة الطاهرة ، وتعرف أن السرّ في ذلك كان بسبب موت القائد محمد (ص) ولذا لابدّ لها من أن تعيد شريط حياتها الماضية مع أبيها لتعطيه حقه ولكن في إطار من اللوعة والبكاء والاسى ، حيث صار ديدنها أن تبكي على أبيها بعد أن تتذكر أيامها الندية التي قضتها تحت ظلاله الوارفة ، ويزداد بكاؤها حتى يضرب بها المثل في حنينها الى عميدها ، ويضيق أهل المدينة ذرعا بما يجري في بيت الرسالة ، فيفاوضوا عليا (ع) بشأنها ويطلبوا منه أن تبكي فاطمة : أما ليلها أو نهارها ، ولكنها تستمر في لوعتها حتى طاب لها

ـ يوما ـ أن تسمع مؤذن أبيها (بلالاً) وهو يرفع صوته بالاذان لكي يذكرّها بأيام حبيبها الراحل محمد (ص) ، ويستجيب (بلال) لطلبها ، ويرفع صوته بالاذان ، وما أن يذكر بلال اسم محمد حتى يرتفع صوت فاطمة بالحنين اليه ، وتخرّ الى الارض مغمىً عليها مما اضطر بلالاً الى قطع أذانه ، فيضجّ المسلمون بالبكاء مواساةً لفاطمة (ع) .

وتبدو آثار هذه اللوعة تلوح على شخص الزهراء حيث خارت قواها ، ودبّ الوهن في جسمها ، وأصبحت لاتقوى على النهوض ، فأستسلمت للفراش ، واستسلامها للفراش كان إيذانا بوقوع مأساةٍ جديدة لهذه الامة الفتية .

وخيّم الوجوم على بيت الرسالة من جديد ، بل تعمقّ الوجوم وتأصلت المأساة حين أستفحل المرض على الزهراء (ع) ، وراح يلتهم صحتها بنهمٍ وقسوة حتى يئس بيت الرسالة من بقائها اكثر من أيام قليلة يعلن بعدها وقوع المأساة الجديدة ـ مأساة افتقاد فاطمة الزهراء ـ غرس النبوة ومدرسة الرسالة ـ .

وتبدأ جموع المسلمين والمسلمات تنهال على بيت علي لزيارة الزهراء ـ بل لتوديعها ـ وكان في طليعة الوفود وفد الحكومة الجديدة بقيادة الخليفة الاول أبي بكر ـ عبد الله ابن أبي قحافة ـ ووزيره عمر بن الخطاب ، جاءا ليطمئنا على صحتها ويعتذرا لها ـ في نفس الوقت ـ بصدد قضية (فدك) وإحداثها ، وما إن يدخل الوفد على فاطمة الا وتولي بوجهها الى الحائط إعلانا لغضبها على الحكومة القائمة .

وخاطبها أبو بكر طالباً عفوها ، ولكنها ذكرتهم بقول أبيها رسول الله فيها : « فاطمةٌ بضعة مني ، فمن أغضبها أغضبني » .

فأعترف بصدق قوله ـ هذا ـ لها حيث أعلنت بعد ذلك صراحةً :

أنها ساخطة عليهما وأنها سترفع شكواها الى أبيها بعد موتها ، وحين يواجه أبو بكر هذا الاصرار من الصديقة الزهراء على غضبتها عليهما ، يستولي عليه الجزع والاسى ، وتجود عينـاه بالدموع • ويعودان ـ بعدها ـ الي دارهما ـ وهما يتلاومان ـ •

وتتوالى الوفود على بيت الزهراء ، ويستقبل بيتها الكريم وفد نساء الانصار ، وبعد أن يستقر المجلس بالوفد الجديد ، تبدأ النساء يستفسرن عن صحتها ، فترد فاطمة على زائراتها بعبارات مجروحة ، تنم عن ألمها وحزنها من المواقف المخجلة التي وقفها (القوم) منها في قضية (فدك) ، كما تنم ـ أيضا عن سخطها على بعض الانصار الذين وقفوا منها في مواقفها مع (الخليفة الاول) موقفا سلبيا ، فضلا عن سكوتهم إزاء عملية إقصاء علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ عن مركزه القيادي في الامة •

واليك ـ نص كلامها مع الوفد النسائي ـ كما عن ابن أبي الحديد واحتجاج الطبرسي وغيرهما ـ : حيث سألها النسوة : كيف أصبحت من علتك ـ يابنت رسول ـ ؟ :

« ••• أصبحت والله عائفة لدنياكنّ ، قالية لرجالكنّ ، لفظتهم بعد أن عجمتهم [1] وشنأتهم بعد أن سبرتهم [2] ، فقبحا لفلول الحد ، واللعب بعد الجدّ ، وقرع الصفاة ، وصدع القناة ، وخطل الآراء ، وزلل الاهواء [3] ، (ولبئس ما قدّمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) لاجرم ـ والله ـ لقد قلدتهم

(١) عجم العود : عضه بأسنانه ليختبره •

(٢) شنأتهم : ابغضتهم ، وسبرتهم : اختبرتهم •

(٣) تدل هذه الفقرات على النيل بسوء والتواء •

ربقتها ، وحملتهم أوقتها [٤] ، وشننت عليهم غارتها ، فجدعا وعقرا وبعدا للقوم الظالمين ، [٥] ويحهم أني زعزعوها عن رواسي الرسالة ، وقواعد النبوة والدلالة ، ومهبط الروح الامين ، والطبين بأمور الدنيا والدين [٦] (ألا ذلك هو الخسران المبين) . وما الذي نقموا من أبي الحسن ؟ نقموا منه — والله — نكير سيفه ، وقلة مبالاته بحتفه ، وشدة وطأته ، ونكال وقعته ، وتنمره [٧] في ذات الله — عز وجل — . وتا الله ، لو مالوا عن المحجة اللائحة ، وزالوا عن قبول الحجة الواضحة ، لردهم اليها ، وحملهم عليها ، ولسار بهم سيرا سجحا [٨] لا يكلم خشاشه [٩] ولا يكل سائره ، ولا يمل راكبه ، ولأوردهم منهلا نميرا ، صافيا رويا فضفاضا تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه ، ولا صدرهم بطانا [١٠] ونصح لهم سرا وإعلانا ، ولم يكن يحلي من الغنى بطائل [١١] ولا يحظى من الدنيا بنائل غير

---

(٤) الربقة : — بالكسر — عروة في حبل يجعل في عنق البهيمة . والاوقة الثقل ، والضمير للخلافة أو فدك .

(٥) العقر — بالفتح — الهلاك .

(٦) الطبين الفطن الحاذق بالامور .

(٧) التنمر : الغضب .

(٨) سجحاً — بضمتين : — ليناً سهلا — .

(٩) الكلم : الجرح ، والخشاش — بالكسر — ما يجعل في أنف البعير .

(١٠) أي عظمت بطونهم من الشراب .

(١١) أي لم يستفد منه بكثير .

ريَّ الناهل [١٢] وشبعة الكافل . ولبانَ لهم الزاهدُ من الراغب ، والصادقُ من الكاذب (ولو أنَّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والارض ولكن كذَّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئاتُ ما كسبوا وماهم بمعجزين) .

ألا هلمَّ فأستمع ، وما عشتُ أراكَ الدهرُ عجبًا ، وإن تعجب فعجبٌ قولهم . ليت شعري ، انى أي سنادٍ استندوا ، وعلي أيِّ عماد اعتمدوا ، وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا [١٣] (لبئس المولى ولبئس العشير ، وبئس للظالمين بدلا) استبدلوا ــ والله ــ الذَنابى بالقوادم [١٤] والعجزَ بالكاهل [١٥] فرغما لمعاطس قوم (يحسبون أنهم يحسنون صُنعا ألا انهم هم المفسدونَ ولكن لايشعرون) وَيحيهم (أفمن يهدي الي الحقَ أحق أن يتبع أمنَّ لايهدي الاَّ ان يُهدى فما لكم كيف تحكمون) أما لعمري ، لقد لَقحت ، فنظرةً ريث ما تنتج ، ثم احتلبوا ملاء القَعب دماً عبيطا وذُعافا ممقرا [١٦] هنالك يخسر المبطلون ، ويعرف التالونَ غبَّ ما أسس الاولون ، ثم طيبوا عن دنياكم أنفسا ، واطمئنوا للفتنة جأشا [١٧] وأبشروا بسيف صارم ، وسطوة

---

(١٢) الناهل : العطشان .

(١٣) أحتنكه : استولى عليه .

(١٤) الذنابى ــ بالضم ــ : ذنب الطائر . والقوادم : الريشات العشر من مقدم الجناح .

(١٥) الكاهل : ما بين الكتفين .

(١٦) الذعاف ــ بالضم ــ : السم .

(١٧) الجأش ــ بالهمزة : النفس والقلب .

معتدٍ غاشم وهرج شامل وأستبداد من الظالمين يدع فيأكم زهيدا ، وجمعكم حصيدا ، فيا حسرةً لكم ، وأنى لكم ، وقد عميّت عليكم (أنلزمكموها ، وأنتم لها كارهون) .

وبهذه الكلمات الوضاءة قابلت الزهراء (ع) وفد نساء الانصار، وهذه الكلمات بحق قبس من نور النبوة الساطع ، وثمرة من ثمار الوحي التي تلقاها بيت الرسالة ومهبط الوحي ، ففاطمة الزهراء (ع) وهي في آخر أيامها — والمرض قد أستبد بها — ما نسيت دروس الجهاد ، فهيَ ومن على وسادتها تعلن لوفد الانصار رأيها الصريح في الواقع المرّ الذي آلت اليه الامة بعد افتقاد قائدها محمد (ص) .

والباحث المتتبع يستطيع أن يلمس في حديثها هذا النقاط الآتية :

١ — إعلانها عن سخطها على الانصار وغيرهم ممن استسلموا لواقع يجب استنكاره وتغييره .

٢ — إعلانها : أن عليا هو الخليفة الشرعي لأبيها محمد (ص) .

٣ — تبيان صفات علي (ع) التي رشحته ليكون أهلاً لقيادة الامة ، سيما وهو أدرى بشؤون الشريعة من سواه .

٤ — شرح الاسباب التي دعت الجاحدين وذوي المصالح الآتية الى أقصاء علي عن مقامه القيادي .

٥ — إعلانها عن واقع غيبي تصير اليه الامة قريبا من تفرق لجمعها وأستبداد الظالمين بأمورها .

٦ — إعلانها أسفها للحالة التي صار ، ويصير اليها الناس بعد أبيها محمد (ص) .

وعاد وفدُ نساء الانصار ليبلغَ الرجالَ مباديء فاطمة التي أعلنتها دون أكتراث او مواربة .

وتزداد صحة فاطمة سوءاً يوما بعد يوم ، وقد حان الوقت لتعلن وصاياها لامير المؤمنين ــ علي (ع) حيث قالت : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أوصت به فاطمة بنت محمد ، أوصت بحوائطها السبعة الى علي بن أبي طالب ، فان مضى ، فالى الحسن ، فان مضى فالى الحسين ، فان مضى فالى الاكابر من ولدي » .

وكتب علي (ع) هذه الوصية وشهدَ بها المقداد بن الاسود والزبير بن العوام . كما أوصت فاطمة الزهراء (ع) أن لايغسلها بعد موتها غير علي وأسماء بنت عميس ، كما أوصت مؤكدة أن لايشيعها (القوم) الذين غصبوها حقها بعد موتها ، حيث قالت : لعليَّ في آخر أيامها : « أمنفذ أنت وصيتي وعهدي او ــ والله ــ لاعهدن الى غيرك ؟ » ، فقال علي (ع) « بلى أنفذها » . فقالت عليها السلام : « اذا أنامت فادفني ليلاً ولا توذنن بي أبا بكر وعمر » [1] كما انها أوصته بولديها الحسن والحسين خيرا .

وتحسَّ الزهراء باقتراب أجلها ، فتقول لاسماء : « اني قد استقبحت ما يصنع بالنساء : انه يداح على المرأة الثوب فيصفها لمن رأى » .

وهذه البادرة من فاطمة حين تعلن لاسماء من أنها تكره أن توصف بعد موتها وأثناء حملها الى قبرها فتودَّ الا يعرف الرائي عنها شيئا أبدا ، حين تعلن الزهراء (ع) هذه الحقيقة ، فانه ليس عجيبا ولا مستغربا منها ، فهي قد أعلنت ــ بالامس وفي عهد أبيها الزاهر حين سئلت عن أحب شيء تراه للمرأة ــ فأعلنت قائلة : « ان لاترى الرجل المحرَم ولا الرجل المحرَم يراها » .

---

(١) كشف الغمة للاربلي .

بهذا المبدأ المشرق من التقوى تعيش الزهراء (ع) وتوصي أن تعيشه بعد وفاتها حتى يضم رفاتها الطاهر تراب الأرض .

وحين ترى أسماء بنت عميس تبرّم الزهراء (ع) من عملية حمل المرأة الى قبرها بالشكل المعتاد يومذاك ـ مع شرعيته ـ تصف لها صورة نعش رأته في الحبشة أيام هجرتها يُصنع من جريد النخل ، وقد قامت أسماء بتصويره عمليا أمامها ، فسرت الزهراء لذلك وابتسمت ، ولاول مرة حيث اختفت عن ثغرها الابتسامات منذ فقدت أباها الكريم محمداً (ص) .

وفي آخر يوم من أيامها تصبح الزهراء (ع) وقد بدا بعض التحسّن على صحتها فيطمئن علي (ع) ويغادر البيت الى المسجد ليؤدي مهمته في حفظ الرسالة وشرعها القويم ، وتتوضأ الزهراء (ع) للصلاة فتطلب الى أسماء بنت عميس أن تأتيها بشيء من طيبها الذي تتطيب به وملابسها التي تصلي فيها ، وتضع رأسها على وسادتها وهي تقول لاسماء : « أجلسي عند رأسي ، فاذا جاء وقت الصلاة فأقيميني ، فان قمت ، والا فأرسلي الى علي » .

ويحلّ وقت الصلاة وتخاطب أسماء الصديقة الزهراء بقولها : « الصلاة يابنت رسول الله » .

ويخيم الفزع على أسماء لان الزهراء لم تجبها بشيء وتبادر اليها فتكشف عن وجهها وهي تصيح : « يابنت محمد المصطفى ... يا بنت اكرم من حملته النساء ... يابنت خير من وطأ الحصا ... » .

فتراها وقد فارقت الحياة ، ويدخل الحسنان في هذه اللحظات الحاسمة من حياة بيت الرسالة ويسألان عن أمهما ، فتفاجئهما أسماء : أنها قد فارقت الدنيا ، وما أشدّ الصدمة عليهما ـ حينذاك ـ لقد

وقع الحسن على أمه ليقبلها القبلة الاخيرة ، وهو يقول : « ياأماه كلميني قبل ان تفارق روحي بدني » . ويقع الحسين (ع) عليها وهو يقبل رجليها ويقول : « ياأماه أنا ابنك الحسين كلميني قبل أن ينصدع قلبي » ، وتلعب اللوعة دورها ويهيج الاسى في بيت الرسالة وتستولي الاحزان عليه من جديد ، وتطلب أسماء الى الحسنين أن يخبرا أباهما بما حدث لامهما .

ويسرعان الى أبيهما ـ والبكاء والحسرة يعمران قلبيهما ـ فيدنيان من مسجد جدهما (ص) وتجيش اللوعة في قلبيهما بعنف ، فيرفعا صوتيهما بالبكاء .

ويفاجأ المسلمون ببكاء الحسنين ، وظنوا أنهما تذكرا جدّهما ، فراح البعض يهدىء من لوعتهما ، ولكنهما أعلنا النبأ المفزع ـ نبأ افتقاد شجرة الامامة وغرس النبوة ـ حيث قالا : « أو ليس قد ماتت أمنا فاطمة ؟ » .

ويسمع علي هذا النبأ ، فتضطرب نفسه ، وتهز المفاجأة كيانه ، وهو يقول : « بمن العزاء يابنت محمد ؟ كنت بك أتعزى ، ففيم العزاء من بعدك ؟ » .

وحين يعلن هذه الكلمات يرسم حدود قيمة المرأة المسلمة لدى زوجها اذا عاشت وأياه على صعيد المصير الواحد والهدف الواحد والرسالة الواحدة ، ثم ينشد علي (ع) :

لكل اجتماع من خليلين فرقة" وكل الذي دون الفراق قليل
وان افتقادي فاطمـا بعـد أحمد دليل على ان لايدوم خليـل

وحين ينشد هذين البيتين يعلن تجلدّه على المصاب الاليم ، اذ أن لكل اجتماع فرقة ، وهو حين يعلن هذه الحقيقة ينهل بذلك من منهل

الوحي : « كل من عليها فان » وهذا ليس غريبا على علي بن أبي طالب (ع) لان فكره وسلوكه وعواطفه قد صقلها الاسلام فعاد اسلاما يسير على الارض .

وتدوي أصداء النبأ المؤلم في آفاق عاصمة الاسلام (المدينة المنورة) وتمتلىء نفوس المسلمين أسىً وتزحف جموعهم الى بيت الرسالة حاملة تعازيها اليه ، ولتساهم في عملية تجهيز الزهراء (ع) لحملها الى مثواها الاخير ، وحين تسرع الجموع الغفيرة للاشتراك في مراسيم تجهيز الزهراء (ع) فانما قد أملى ذلك عليها عوامل أساسية .

أولها ــ الالتزام بمبدأ الاخوة الاسلامية الذي يفرض مشاركة المسلم لأخيه المسلم ، انطلاقا من قول الرسول الاكرم (ص) : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » . وقوله (ص) : « من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » وقد جاءت جموع المسلمين استجابة لهذا المفهوم الوضاء .

ثانيها ــ ان معرفة المسلمين لقيمة فاطمة الزهراء (ع) عند الله ورسوله دفعتهم للمساهمة في تجهيزها بعد موتها سيّما وأن أقوال الرسول (ص) ما زالت ترنّ في آذانهم حيث يقول : « فاطمة بضعة مني . . . » .

وغير ذلك من مئات التصريحات التي أولى بها الرسول القائد (ص) بشأن تقييم فاطمة (ع) ولهذا السبب هرعت الجموع المسلمة لتشارك في تجهيز جزءٍ من قائدها محمد (ص) يتمثل ببضعته الطاهرة .

وقد عم الوجوم أجواء المدينة وكافة بيوتها ومجالات عملها وحضر كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وغيرهما للمشاركة في عملية

التشييع والصلاة على الصديقة الطاهرة .

وبعد ساعات من الوجوم والآلام والكآبة صرّح ناطق بلسان البيت العلويّ بأنّ دفن الزهراء (ع) تأجلّ هذه العشية ، وكان الناطق أباذر الغفاري ــ رحمه الله تعالى ــ وما أن تستمع الجماهير الى نبأ تأجيل الدفن الاّ وتتفرق وهي على موعد آخر للتشييع والدفن.

ويبادر عليّ لتنفيذ وصايا الزهراء ــ برمتها ــ فيعمد هو وأسماء بنت عميس الى تغسيلها ، والحسنان يريقان الماء على جسدها الطاهر ، واللوعة تأخذ بمجامع قلوبهم جميعا وبعد أن أدرجها علي (ع) في اكفانها وقبل أن يعقد الرداء نادى : حسنا وحسينا وزينب وفضة وأم كلثوم ليلقوا النظرة الاخيرة على أمهم الطاهرة فاطمة الزهراء (ع) فضجّوا بالبكاء عليها والحنين اليها .

وكان الحسنان يقولان : « وآحسرة لاتنطفي أبدا من فقد جدنا محمد المصطفى وأمنا فاطمة الزهراء » .

وبعد لحظات من التوديع المشوب بالحسرة والآهات عقد علي عليه السلام رداء الكفن وقد هاجت به أحزانه فأنشد يقول :

فراقك أعظم الاشياء عندي وفقدك فاطمٌ أدهى الثكول

سأبكي حسرةً وأنوح شجواً على خلٍّ مضى أسنى سبيلِ

الا ياعين جودي واسعديني فحزني دائم أبكي خليلي [1]

ويمضي من الليل شطره ، فيأمر علي (ع) يحملها الى مثواها ، فيحملها علي والحسن والحسين وعقيل وعمار والزبير وأبو ذر وسلمان والمقداد وبريدة وجماعة آخرون من بني هاشم بعد الصلاة عليها ،

(١) الدمعة الساكبة .

ويعدّون لها قبرا في بيتها [1] وينزلها علي (ع) فيه وبعد أن ينفض يديه من تراب القبر تهيج به الحسرة ويرسل دموعه على شفير قبرها ، وهو يقول :

« السلامُ عليكَ يارسولَ الله عني وعن ابنتك النازلة في جوارك والسريعة اللحاق بك ، قلّ يارسول الله عن صفيتك صبري ورقّ عنها تجلدي ، ألا إن لي في التأسيّ بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعزٍ ، فلقد وسدتك في ملحودة قبرك وفاضت بين نحري وصدري نفسك ، فانا لله وانا اليه راجعون . فلقد استرجعت الوديعة وأخذت الرهينة ، أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهّد الى ان يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك فأحفها السؤال واستخبرها الحال ، هذا ولم يطل العهدُ ولم يخلف الذكر ، والسلام عليكما سلام مودّع لا قالٍ ولا سئِم ، فان أنصرف فلا عن ملالة وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين ... » [2] .

بهذه الكلمات الطافحة بالآلام يودّع علي (ع) زهراءه الحبيبة، انها كلمات تهزّ النفوس وتخفق لها القلوب وتدمع العيون ؛ إنها الكلمات الحارة ، كلمات الاسى التي تعلوها الشكوى للقائد محمد (ص) مما آل اليه أمر علي وأمر الزهراء بعد أبيها .

ولم يجد علي (ع) عزاءً غير أن يتأسى بمصابه الاول ، بمصاب الحبيب محمد (ص) لان مصيبة افتقاد محمد أشدّ وقعاً في نفس علي (ع) من افتقاد فاطمة (ع) ولذا وجد في مصابه بمحمد خيرَ معوانٍ له على مصابه الجديد ، ولكنه يقرن هذا التأسي المرّ بحزن دائم وليل مسهّد لاتنطفيء فيه نار اللوعة والحسرات أبدا ، حتى يلتحق

---

(١) المجالس السنية (٢) شرح نهج البلاغة .

بأحبائه في دار الخلود .

ويفارق علي (ع) قبر الصديقة الطاهرة ، ولكن بعد أن أعلن أنه يودّع القبر لا عن سأم ولا كراهية ، ولا ملل ، ولكنه استجابة لتعليم الرسالة بالتزام الصبر ، ويفارق وهو أشد ما يكون ثقة بأن ربه سيلحقه بدار الخلود مع محمد (ص) وزهرائه الطاهرة (ع) .

أضواء على تراث الزهراء

١ ـ تمهيـــد
٢ ـ أبعاد الجاهلية
٣ ـ فلسفة الاسلام

١ ـ تمهيـــد

تُعرف قيمةُ الانسان بما يقدمّه للأجيال التي تعاصره أو تعقبه من عطاء حضاري يدّلها على السبيل الذي يجب أن تلتزمه في حياتها ، وتتفاعل معه ، ويرفعها الى مستواها اللائق تحت الشمس .

وأقول : العطاء الحضاري ، لان النوع الانساني مجبول على التفاعل مع الكون بما فيه من قوى وطاقات بدافع حبّ الاستطلاع والتملك ، ومع أبناء جنسه بدافع غريزة التجمع الفطرية المركوزة في كيان الانسان .

وهذا التفاعل بشتى شطريه : « مع الكون أو الانسان » يحتاج الى التنظيم والصقل ، ابتعادا عن الاضطرابات والنزاع والحروب والبغضاء بين أبناء النوع الانساني ، وهذا التنظيم لايتم بطبيعة الحال بصفة ميكانيكية عن طريق استعمال أدوات خاصة تتحقق على يديها المعجزة ـ معجزة التنظيم في كيان المجتمع الانساني ـ وإنما يتم ذلك عن طريق واحد : هو الفكر ، هو التشريع ، هو التقاليد التي يتبناها الناس وينضوون تحت لوائها ، لانها ـ وحدها ـ التي تنظم حقوق الفرد والمجتمع وواجباتهما .

ولما كانت الحضارة ـ المفاهيم عن الكون والحياة والانسان ونحوها ـ هي وحدها التي تستطيع أن تنهض بهذه الاعباء الجسيمة ، فلابدّ أن يكون افتراضنا واقعيا ومنطقيا ، حينما قلنا : إن قيمةالانسان تتمثل بعطائه الحضاري .

وتحت نقطة أخرى يجب أن نلتفت اليها بهذا الصدد ، إن الانسان

الذي لايتبنى مبدءاً في حياته يعيش من أجله ويخضع لمتطلباته ويكافح في سبيل تطبيقه أو تثبيته أو نشره في الارض ، هذا الانسان لاتختلف حياته عن حياة البهائم ــ على الاطلاق ــ حيث أصبح همه أن تمتلىء معدته أو يؤتّق لباسه فيعيش كما يحلو له ، وهذا الصنف من الناس صنفهم القرآن ــ وهو منهج خالق الانسان ــ بقوله « .... والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوىً لهم » (١) .

ولهذا ترى القادة من أهل البيت (ع) نهجوا السبيل الذي جعلهم يعيشون من أجل المبدأ الاسلامي القويم حيث أخضعوا كل متطلبات حياتهم لصالح منهج الله سبحانه ، فانطلقوا يتحدثون باسم المنهج ويسلكون ما رسمه ويفكرون في حدود معالمه القويمة .

والزهراء (ع) مدرسة الامامةوغرس النبوة ــ كانت على المستوى ذاته ، فأوقفت حياتها الروحية والفكرية والجسمية خدمةً للرسالة وذودا عن حياضها .

وقد ضربت في ذلك أروع الامثلة وأنصعها ، ومما يجلي هذه الحقيقة الناصعة : الرجوع الى تراثها الفكري الضخم الذي خلفته لاجيال الامة الاسلامية ضاربةً لهم أروع الامثلة في الذود عن حياض الرسالة وتبيان معالمها القويمة . ولعل الباحث في حياة الصديقة الزهراء لايجد في تراثها الحضاري الضخم أعظم من خطبتها التي ألقتها في مسجد أبيها ، والتي لو ورثناها وحدها منها لدلّت ــ بوضوح وجلاء ــ على عظمة شخصية الزهراء (ع) لانها قد جسدت كلّ أرائها ومناهجها التي استقتها من منهل الوحي المقدس .

والمتتبع التأريخي لحياة الزهراء لايمكن أن يفصل خطبتها عنها ،

---

(١) سورة محمد آية / ١٢ .

لان خطبتها أضخم رصيد لفهم شخصيتها على الصعيد الواقعي والمنطقي ولذا فليس بدعا من الامر أن نخصص فصلا خاصا لإلقاء الاضواء على بعض جوانب خطبة الزهراء (ع) لمعرفة أبعاد شخصيتها الفذة ومدى هظمها لمنهج السماء المبارك ، واستيعاب معالمه الرئيسة .

وحين نؤكد ـ هنا ـ أهمية خطبة الزهراء لانريد بذلك أن نجرد الزهراء عن باقي تراثها الحضاري الضخم ، ذلك لان التأريخ قد أتحفنا بكثير من النصوص التي باستطاعتنا أن نستقي تراثها الحضاري منها ، ولكننا وجدنا أن أبرز شيء في تراثها : خطبتها التي ألقتها في مسجد أبيها في مطلع خلافة ابي بكر .

كما أن هذه الخطبة قد جمعت كل تراثها وفهرسته في آنٍ واحد ، وهذا مما حدا بنا أن نلقي أضواءً على بعض جوانب الخطبة الرائعة التي جمعت كما يتضح أروع المفاهيم الاسلامية في الحكم والمجتمع ومعالم التشريع الاسلامي الرصين . وسنورد بعض نصوصها إيفاءً لغرضنا في البحث .

٢ ـ أبعاد الجاهلية

« ... فرأى الامم فرقا في أديانها ، عكفا على نيرانها ، عابدة لأوثانها ، منكرة لله مع عرفانها ، فأنار الله تعالى بأبي محمد ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها وجلى عن الابصار غممها ، وقام في الناس بالهداية ، وأنقذهم من الغواية ، وبصرهم من العماية ، وهداهم الى الدين القويم ، ودعاهم الى الصراط المستقيم ... » .

هذا مقطع قصير من خطبة الزهراء (ع) والذي نحن بصدد بسط مفاهيمه الناصعة .

والباحث المتتبع حين يستقريء هذه الكلمات الوضاءة يقطف أشهى الثمار منها ، فيستنبط مفهوما إسلاميا رائعا عن الجاهلية التي رزحت البشرية تحت أعبائها الثقيلة ، قبل بزوغ شمس الاسلام الحنيف على يد الرسول العظيم محمد (ص) .

فالزهراء (ع) تفهرس لنا حياة البشرية برمتها قبل أن يصدع أبوها القائد برسالته السماوية المباركة ، فهناك الذين فرقوا دينهم شيعا وأخضعوه لمتطلبات شهواتهم ورغباتهم كاليهود والنصارى .

وهناك العاكفون على الاوثان الخاضعون للأصنام التي صنعوها بأيديهم واتخذوها آلهة من دون الله سبحانه ، معتقدين بقدرتها على الخلق والايداع ، والرزق والتوفيق والنصر .

وهذا ما كانت عليه الجزيرة العربية حيث دان العرب لهذا النوع من التدين ، فملؤا بيت الله الحرام بركام من الاحجار والصخور ، دعوها آلهة تقربهم ـ بزعمهم ـ الى الله زلفى .

والى جانب هـذا المنهج المادي الطائش نشأت عبادة النيران والانصياع لها والسير وفقاً لمنهج خرافي هابط يعزز مفهوم هذه العبادة الخرقاء ، وقد رزحت بلاد فارس تحت هذا النوع من التدين الاجوف على يد الدين المجوسي .

والى جانب هذه الأنواع من الاديان الوضيعة نشأ خليط من الاديان ، سارت عليه الدولة البيزنطية التي تمثل المعسكر الغربي للعالم ـ يومذاك ـ حيث خلطت مفاهيم الكنيسة المسيحية مع المفاهيم الوثنية المادية مما كون خليطا جاهليا جديدا في عالَم الاديان الترابية .

وعلى ضوء ما رسمته الصديقة الزهراء (ع) ـ هنا ـ نستطيع أن نستنبط النقطتين الآتيتين : ـ

١ ـ أن الاديان والمناهج الفكرية والاجتماعية التي تتمخض عن تفكير الانسان ، أو التي أضافها الانسان الى بعض الشرائع السالفة ، كل ذلك يؤلف جاهلية واحدة ، وان تعـددت أشكالها وألوانها ، لان الجاهلية في منطق الزهراء ـ كما يبدو ـ وهو الابتعاد عن منهج الله الذي بشر به الرسل والانبياء ـ عليهم السلام ـ وتطبيق سواه على واقع الانسان الفكري والعملي ، سواءً أكان ذلك دينا وثنيا ماديا أو خليطا من مفاهيم سماوية وأخرى وضعية ، حيث عبَّرت الزهراء (ع) عن الواقع ـ بما فيه الدين اليهودي والمسيحي ـ بالظلم والغمم والبهم والغواية والعَماية ، وهـذا يدلنا ـ بوضوح ـ على أن الديانتين السابقتين خاضعتان للانحراف أيضا ، والاّ لماذا وصفتهما الزهراء (ع) بالعماية والغواية ونحوها من النعوت دون استثنائهما ؟

فاليهودية والنصرانية كانتا ـ في ذلك العهد ـ قد صُفيت حساباتهما ، وانحرفتا عن السمة الالهية الاصيلة .

٢ ــ حين تعلن الزهراء (ع) أن المناهج كلها قد انحرفت عن منهج الله سبحانه وأصيبت بداء الغواية والعماية على حد تعبيرها يدلنا هذا على أنها إنما أرادت أن تعلن للجاحدين ان اباها لم يأتِ برسالته السمحاء الا عن طريق واحد ، هو طريق الوحي المقدّس ــ طريق السماء والاصطفاء والنبوة ــ وليس عن طريق بلورةٍ وتفاعل للمفاهيم الدينية السائدة ، وصبها في قالب جديد ، ذلك لان المفاهيم الدينية السابقة قد أنحرفت جميعا عن منطق الحق والاستقامة ؛ فكيف تقوى إذا مزجت وبلورت على خلق نظام متناسق كرسالة الاسلام المقدسة ، وهذا ما يجعل العقول البشرية تطمئن الى كون رسالة محمد (ص) وتعاليمه وتلقيناته قد تلقاها من السماء بعيدا عن أوضار الجاهلية وآفاق الارض وانحرافاتها .

وحين ترسم الزهراء (ع) هذه الحقيقة الناصعة تنطلق ــ في مقطع آخر من خطبتها الرائعة ــ لتبيان الملابسات التي اتسمت بها الجاهلية في الجزيرة العربية ، فهي قد أعطت القاسم المشترك للجاهليات المتمثل برفض منهج الله وأستبداله بنتاج العقول البشرية القاصرة ، ثم انطلقت لتبيان السمات الاخرى التي تختص بها جاهلية الجزيرة العربية ، فضلا عن اشتراكها مع غيرها بسمة الخروج عن حكم الله ومنهجه ، فتقول مخاطبة العرب : « ... وكنتم على شفا حفرة من النار ، مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان ، وموطىء الأقدام ؛ تشربون الطرق ، وتقتاتون القدّ ، أذلةً خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله بأبي محمد ... » .

وفي هذا المقطع الجديد من خطبة الزهراء (ع) تنعكس أمامنا صورة واقعية لظلامات الناس في الجاهلية التي أطبق ليلها على الجزيرة

العربية قبل أن يشع نور الهداية الساطع .

ونستطيع هنا أن نميز النقاط الآتية :

١ ــ ابتعاد العرب نهائيا عن ظلال الحق والواقع ، مما جعلهم يقفون على شفير الهاوية ، وذلك نتيجة عدم استظلالهم بنور الهدى الذي جاءهم على يد الرسول الكريم ابراهيم وابنه اسماعيل (ع) وتحويلهم رسالة السماء وتعاليمها الى عبادةٍ لأوثان صنعوها من الحجارة ، وملأوا بها بيت الله الحرام بحجة أنها تقربهم الى الله زلفى .

٢ ــ تفرقهم المرير وعدم قدرتهم على التجمّع حتى على أساس قومي ، فكانت الحروب الدامية تدور رحاها بينهم ، ومنها ما يستمر عشرات السنين بين قبائلهم المتناحرة على الماء والكلأ ، مما جعل الاستيلاء عليهم أمرا لايحتاج الى بذل كثير من جهد : « مذقة الشارب ، ونهزة الطامع ، وقبسة العجلان ، وموطىء الاقدام » .

فهم هدف لكل غازٍ ومستعمر وفاتح ، فقد غزاهم الاحباش واستعمروا بعض أراضيهم ، أسوة بالفرس والرومان ، فالذلة والمسكنة والوهن كانت صفة ملازمة للعرب في جزيرتهم ، لاحول لهم ولا طول في إقامة مجتمع أو إنشاء أمة أو دفاعٍ عن حمى أو وطن من الغزاة .

٣ ــ حالتهم المعاشية منحطة لانظير لها ، نظرا لصحراوية أرضهم ، وقلة مواردها المائية مما جعلهم يشربون المياه الآسنة التي لاتصلح أن تكون صالحة لشرب البهائم فضلاً عن الانسان ، سيما وهي من مياه الامطار التي تجتمع في بُقع واطئة من الصحراء ، مكونة واحاتٍ وقتية يسرع اليها الناس لسدّ حاجاتهم وحاجات مواشيهم ، وقد تتعرض دوماً لخوض الابل وبرازها وبولها وهذا ما وصفته الزهراء (بالطرق) .

ثم تعرّج ـ عليها السلام ـ لتتحدث عن غذاء القوم في جاهليتهم، فتصفه وصفا دقيقا بقولها : « وتقتاتون القد » إذ كان العرب يقتاتون جلد المعزى لسوء حالتهم المعاشية .

وحين تنزل أمة الى المستوى الذي يجعلها تتناول جلد الماعز غذاءً تسدّ به رمقها ، فانها قد بلغت ـ على هذا الاساس ـ مستوىً إقتصاديا لامثيل له في قاموس الانحطاط .

والزهراء (ع) حين تصورُ لنا حياةَ العرب ، فانما تصورها بصفة جماعية لا إجتماعية ، لان المجتمع العربي الجاهلي لايخلو من فئة يعدّ أفرادها بالاصابع قد بلغت مستوىً من الثراء ، وهؤلاء يمكن العثور عليهم ـ فقط ـ في مكة المكرمة ، أما سائر أقاليم الجزيرة العربية فلا تخرج ـ على الاطلاق ـ عن الاطار الذي رسمته الزهراء آنفا ، فالحياة بصفة عامة حياة طرق وقدّ ، وهكذا كان حديث الزهراء (ع) حديثا اجتماعيا بحتا يصف الانسان العربي وظروفه في ظلال الجاهلية الهوجاء ، وقبل حدوث العملية التحريرية الكبرى التي حققتها رسالة الاسلام .

وحين ترسم الزهراء هذه الحقيقة التأريخية الناصعة أمام مخاطبيها والاجيال الاسلامية ، تنطلق بعد ذلك لرسم معالم الشريعة الاسلامية بكل دقة وإيجاز :

٣ ـ فلسفة الاسلام فى منطق الزهراء

« ... فجعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك ، والصلاة تنزيها لكم عن الكبر ، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق ، والصيام تثبيتا للاخلاص ، والحجَ تشييدا للدين ، والعدلَ تنسيقا للقلوب ، وطاعتنا نظاما للملّة ، وإمامتنا أمانا من الفرقة ، والجهادَ عزا للاسلام وذلاً لاهل الكفر والنفاق ، والصبر معونةً على استيجاب الاجر ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحةً للعامة ، وبرَّ الوالدين وقايةً من السخط ، وصلة الارحام منسأةً في العمر ومنماةً في العدد ، والقصاص ، حقناً للدماء ، والوفاءَ بالنذر تعريضا للمغفرةِ ، وتوفيةَ المكاييل والموازين تغييرا للبخسة ، والنهي عن الخمر تنزيها عن الرجس، واجتناب القذف حجابا عن اللعنة ، وتركَ السرقة إيجابا للعفة ، وحرَّمَ الله الشرك إخلاصا له بالربوبية : « فأتقوا الله حقَ تقاته ، ولا تموتنَّ الا وأنتم مسلمون ، وأطيعوا اللهَ فيما أمرَكم به ونهاكم عنهُ ، فانمَّا يخشى الله من عباده العلماءُ .. » .

في هذا المقطع الوضّاء من الخطبة ترسم الزهراء (ع) الحقيقة الكبرى التي أمتاز بها الاسلام عن سواه من الشرائع : في كونه عقيدةً ونظاما ومنهجا فهرس الحياة الانسانية برمتها ، وبرمج متطلبات النوع الانساني بهيكل تشريعي ضخم ، طرق باب كل مشكلة من مشاكل الحياة الانسانية ، وتوفرَّ على حلّها بما يتناسب والمصلحة وبما يتماشي والحكمة .

وهذه الحقيقة الكبرى التي أمتاز بها منهج الله تعالى قد أغفلها

الكثيرون من أبناء الامة الاسلامية ، تأثرا بالحضارة الغربية الغازية التي فصلت الدين عن الحياة . وعلى هذا الاساس ردّد أبناؤنا صدى أفكار اعدائهم فراحوا يسمون دينهم بدين الكنائس والمساجد ، فليس بمقدوره بل وليس من اختصاصه أن ينشيء أمةً ، او يخلق مجتمعا لان وظيفته — بزعمهم — محصورة في أطار المساجد والطقوس العبادية .

ونحن بدورنا حين نستقرىء جانبا من خطبة الزهراء (ع) يتضح لنا أنها حين تحدثت عن فلسفة الاسلام وإطاره العام — لم تكن لتستهدف إقناع مخاطبيها : أن في الاسلام نظاما يهذّب الفرد ، وينظمّ الجماعة ، ويقيم الدولة ، وإنما كان ذلك أمرا بديهيا في حديثها ، بل من الامور التي لايرتاب فيها مسلم ، مهما انخفضت درجة ايمانه بالاسلام يومذاك ، ولذا فان الزهراء (ع) استعرضت معالم الاسلام وتعليماته كوسيلة لتبيان حقيقة أخرى ترتبط بالحقيقة الاولى ، اذ كان همها أن تبينّ الاهدافَ السامية التي من أجلها كان التشريع الاسلامي بهذا الشكل لابسواه ، بل إنها أرادت أن ترسم العلل التي من أجلها حددّت معالم الرسالة الاسلامة بهذه الصيغة المعلومة لابسواها .

ولابدّ لنا أن نلمّ إلمامةً سريعة بالمفاهيم الاسلامية التي طفحت بها هذه التحفة التي منحتها الزهراء لأجيالنا الاسلامية المتعاقبة وبمقدورنا أن تستنبط النقاط التالية على ضوئها :

١ ـ الجانب العقيدي :

يعتبر جانب العقيدة في كل رسالة أو مذهب اجتماعي الحجر الاساس الذي تبتنى عليه معالم الرسالة وتحددّ على ضوئها أطرَها ومقوماتها . .

وانطلاقا من هذه الحقيقة الثابتة ، انطلق الاسلام في تثبيت جانب العقيدة في نفوس الجماعة من أتباعه ، وأنفق وقتا وجهدا كبيرا خدمةً

لهذا الجانب في موكب دعوته الهادر . ولهذا توفرّ القرآن الكريم ــ وهو دستور المنهج الإلهي ــ على دراسة واسعة جدا للعقيدة ، أوقف خلالها زهاء ثلاثة أرباعه ، خدمةً لها وتثبيتا لمعالمها . وقد نبض بهذا العامل القرآن المكي ــ خصوصا ــ اذ كان الايمانُ بالله ورسوله واليوم الآخر هي الاوتار الحسّاسة التي اهتمّ في الضرب عليها . وبعد تثبيت هذه القواعد الرصينة انطلق الوحي المقدّس لرسم معالم التشريع الاجتماعي والاقتصادي والعسكري وغيره ، لكي تكون هذه الجوانب قد امتلكت قاعدتها الصلبة التي تستند عليها في تحقيق أهدافها في حياة النوع الانساني .

وإبرازاً لهذه الحقيقة ــ دشنّت الزهراء (ع) حديثها عن الاسلام مبتدئة بالايمان : « فجعل الله الايمان تطهيرا لكم من الشرك ... » .

فهي تؤكد لنا أن الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر ــ الذي أوجبَ الله الالتزامَ به كعقيدةٍ رصينة للمسلم يمثل المناعة الطبيعية التي يمتلكها المسلم لدرء وباء الشرك الذي يزلزل العقيدة القويمة ويهدد كيانها بالانهيار ، فيصاب العقل والفكر والروح بعاهة يفقدها التوازن ، لان الشرك والايمان لايمكن أن يجتمعا في كيان إنسان واحدٍ أبدا ، لأنهما مفهومان لكل منهما معالمه التي تسيطر على العقل والروح ، فاذا دخل الشرك عقلية المسلم فان ذلك يعني أن قوى الايمان قد انسحبت من المنطقة التي احتلتها قوى الشرك في ذهنه ، ولذا كان الايمان الرصين إبادةً لجراثيم الشرك بالله سبحانه في عقلية المسلم .

والمشرك ــ على هذا الاساس ــ من يستهدي في حياته الفكرية أو العملية منهجا غير منهج الله تعالى ، أو من يخلط بين مفاهيم الرسالة الاسلامية وغيرها من نتاج الجاهلية الهوجاء .

وحين تفتتح الزهراء (ع) حديثها عن الاسلام بالحديث عن الايمان وفلسفته وبصفته الركيزة الاولى التي يقوم عليها المبدأ الاسلامي الحنيف ، تنطلق ــ بعد ذلك ــ لتحديد معالم الاسلام فتختتم حديثها عنها بالتحدث عن الايمان أيضا : « وحرّم الله الشركَ ، اخلاصا له بالربوبية فأتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتنّ الا وانتم مسلمون ، وأطيعوا اللهَ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فانما يخشى اللهَ من عباده العلماء ... » .

فهي تعلن حرمة الشرك الذي لاتتحقق العبودية المطلقة لله في كيان المرء إذا دخل في نفسه ، ثم تعلن فلسفة تحريمه التي تنسجم ومتطلبات الايمان الصحيح ، وأن تحريمه كان حفظا لمبدأ العبودية المطلقة لله سبحانه ، وتأكيدا لربوبيته في الارض : في الفكر والعمل والعواطف ، ثم تنطلق لتحذرّ من مغبة الشرك : « فأتقوا الله حق تقاته ، ولا تموتن الا وانتم مسلمون ... » .

حيث ألزمت الامة والاجيالَ القادمة بالسير على منهج الله بعيدا عن المتاهات والزيغ ، ولا يتمّ ذلك الاّ بالسير وفقا لمفهومي الحلال والحرام الاسلاميين ، لانهما ــ وحدهما ــ اللذان يمثلان المقياس الثابت الذي يزن المرء بهما سلوكه وتصرفاته وكافة ألوان نشاطه في حياته .

وهذان المفهومان قد عبّرت عنهما الزهراء بأمر الله ونهيه ــ كما دل عليه قولها ــ : « وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه فانما يخشى الله من عباده العلماء ... » .

٢ ــ الاطار المذهبي :

وبعد هذا التحليل الدقيق لمفهوم الايمان ومقوماته ، تنطلق الزهراء (ع) لتشييد البنيات الفوقية لهذا الايمان الرصين ، البنيات الفوقية التي تنسجم مع قاعدة الايمان وتنهل من معينه لكي تخلق الفرد الصالح والمجتمع السعيد والانسان العزيز ، وفقا لمناهج عملية

تنسجم مع الفطرة وتوائم الميول النفسية والروحية والجسدية . وحين تنطلق الزهراء (ع) لتبيان الهيكل العام للمذهب الاسلامي في المشاكل الفردية والاجتماعية انما تنطلق لأستعراضه بصفته حقيقة متفقا عليها ولذا راحت ترسم هذا التشريع تأصيلاً لهذه المفاهيم وتثبيتا لأطرها ، وهذه الحقيقة تجعلنا نكون اكثر وثوقا من أن الامة الاسلامية في مطلع تاريخها كانت تفهم الاسلام بصفته رسالة كبرى تقوم على فلسفة للكون والحياة ودستور للاجتماع والاقتصاد وطريقة في الحكم والسياسة ومنهج للعمل والتفكير ومبدأ ثابت تبتنى عليه الحياة الانسانية للفرد والاسرة والمجتمع والدولة ، أما الفصام النكد الذي وجد اليوم في ذهنية أكثر ابناء الامة الاسلامية بين الدين والحياة فانما هو بدعة غربية ومؤامرة صليبية ستنجلي ظلمتها بعد حين « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » (١) .

لان تباشير الوعي لهذه الحقيقة ـ حقيقة هذا الدين وهذه الرسالة الخاتمة ـ لاحت في الافق وراح كثير من شباب أمتنا الاسلامية يعون الاسلام كمذهب اجتماعي وكيان تشريعي ضخم إمتدّ الى جميع مجالات الحياة ، ولوّنها بصبغة خاصة بعيدة عن الصفة الترابية التي اصطبغت بها المذاهب الوضعية الجائرة عن الفطرة ، ونحن حين نبحث في حياة الزهراء ـ بل تراثها الاسلامي العظيم ـ إنما نقدم بذلك دليلاً عمليا لمن يجهل حقيقة الاسلام ليتضح له بصفته دينا وتشريعا عقيدة ومنهجا ونظاما .

وها نحن أولاء نلقي أضواءً كاشفة على مقطع عظيم من خطبة الزهراء (ع) وهي تستعرض للأمة وأجيالها القادمة حقيقة الرسالة الاسلامية :

---

(١) سورة التوبة / آية / ٣٢ .

والصلاة تنزيها لكم عن الكبر

فالصلاة في منطق الزهراء (ع) رفع للانسان من حضيض التكبر الى مستوى التواضع ، وهي ــ حين تعلن هذه الميزة التي اتسمت بها الصلاة ــ فانما تجسّد لنا واقع الصلاة وقيمتها على الصعيد العبادي والاجتماعي ، فالصلاة ابتداءً صلة روحية بين الانسان وخالقه ، تتخذ طابعا خاصا من الدعاء والتجرد ، ولونا متميزا من السلوك ، فحين يقف المرء أمام خالقه الكبير يعلن اعترافه بربوبيته وحاكميته المطلقة • وبعد هذا الاعتراف يعلن مطالبه من ربه ، ممثلة بطلب عونه : « إياك نعبد واياك نستعين » •

والاعتراف بالعبودية لله سبحانه وتعالى ــ يرسم للمسلم الواقعي صورة حياة مثالية متعددة الجوانب ، مطبوعة بطابع الخضوع المطلق للعزيز الحكيم ، فهي ليست اعترافا بالله كخالق للكون والحياة ــ فحسب ــ وإنما هي عملية يعلن الانسان فيها أن الوجود كله لله سبحانه • وأن الحاكمية المطلقة في خلقه له وحده ، فلا مشرع لهذا الانسان غير الله سبحانه ، فهو وحده الذي يعلم ما يصلحه وما يفسده وما يرفعه وما يضعه •

وبعد هذا الاعتراف بالله سبحانه وصفاته المقدسة ، يقف المرء أمام ربه ، وبهذا اليقين المطلق ليسأله العونَ والهداية ، وهذه العملية تتكرر خمس مرات في كل يوم لتكون مصدرا لتربية النفس والوجدان على الخضوع لله سبحانه ، الخضوع المستمر ، ولتطبع حياة الانسان كلها بطابع هذا الخضوع • ومن ثمّ فان تكرار هذه العملية يشكلّ مناخا صالحا لصقل نفسية المسلم ومشاعره صقلا ينسجم وأوامر الله

ونواهيه لينطلق المسلم بعدها ، وهو اكثر قدرة على تطبيق منهج السماء وحمله والتبشير به .

وقد رسم القرآن الكريم هذه الحقيقة حين أعلن : « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » .

وهنا تتجلى الحقيقة التي تجعل من الصلاة مفتاحا لخلق لون خاص من السلوك بعيد عن المتاهات والانحرافات والطيش والضياع كما تخلق مناعةً طبيعية لمواجهة جراثيم الفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وبعد اتضاح قيمة الصلاة الكبرى في خلق الشخصية الاسلامية ، نقف على الحقيقة الكبرى التي رسمتها الزهراء (ع) أمام الاجيال الاسلامية المتعاقبة حيث جعلت الصلاة الفريضة الاولى التي تعقب الايمان بالله سبحانه في برمجتها لمعالم الرسالة الاسلامية العظيمة .

وينكشف لنا السر ــ بعد ذلك ــ الذي جعل الزهراء (ع) تعتبر الصلاةَ عملية تهذيب من الكبر والخيلاء ، ولان المرء يشعر في قرارة نفسه أنه وكل موجود في هذا الكون البديع يقفون على صعيد العبودية المطلقة لله ــ وحده ــ .

والانسان ــ في الوقت الذي يستشعر العبودية لله وحده في نفسه ــ يحسّ بالتحرر المطلق من كل عبودية لغير الله تعالى ، فالانسان وسائر أبناء جنسه يعيشون في أطار يحمل منتهى العبودية لله الكبير المتعال ، وفي الوقت ذاته يعيشون على صعيد واحد من الكرامة والسؤدد ، فلابدّ ــ اذن ــ أن تلغى كل معالم الخيلاء والتكبر من المجتمع الذي يعيش في أطار الرسالة الاسلامية الكريمة ، وعملية الإلغاء لصفة التكبر في نفسيات الافراد بعضهم على البعض الآخر ، لاتتم الا عن طريق الشعور بالخضوع لله وحده ، وهذا الخضوع يتجسدّ

سلوكا ثابتا في نطاق الصلاة التي رسم الاسلام حدودها ، وبيّن معالمها وأطارها ، ولهذا السر ــ عينه ــ تنطلق الزهراء (ع) لتؤكد للامة بأمتدادها التأريخي : أن الصلاة تنزّه الفردَ والمجتمع من أدواء الخيلاء والغرور والاختيال ، انطلاقا مما تبثه الصلاة من إشعاعات روحيـة واجتماعية في نفسية الانسان المسلم ومجتمعه .

والزكاة تزكية للنفس ونماء فى الرزق

وحين تستقي الزهراء (ع) معالمَ التشريع من منبعه الاصيل ــ كتاب الله العزيز ــ كذلك تستقي الصورة التي سطر بها القرآن الكريم معالمَ التشريع ، فقد اعتاد القرآن ــ مثلاً ــ أن يذكر مفهوم الزكاة بعد ذكره لمفهوم الصلاة ، وهذه الصيغة تتعدد في كثير من آيات التشريع المبارك ، ولهذا السرَعينه راحت الزهراء تجلي فلسفة الزكاة ، بعد أن ذكرت فلسفةَ الصلاة ، وانطلاقا من التلقين القرآني لمثل هذه التعليمات الإلهية الجليلة ، واذا اتضح لنا هذا فانما يتجسد أمامنـا المدى البعيد الـذي أثرّه القرآن الكريم بنفسية الصديقة الزهراء (ع) فهي تمثل شخصية اسلامية رسم القرآن الكريم كل معالمها حتى في مثل هذه الامور .

كما أن هذه الحقيقة تعكس لنا صورةً حية عن أهل البيت (ع) ومدى تطبيقهم لمعارف التشريع الالهي على سلوكهم في أصوله ودقائقه ومعالمه وتفصيلاته ، والزهراء (ع) بعد ذلك تعلن فلسفة الزكاة ، فتقول عنها : أنها تزكية للنفس الانسانية ، ولكنها لم تحدد بعد ذلك مفهوم التزكية هذا ومداه ومنطلقه وحدوده ، فما الغاية التي استهدفتها

الزهراء (ع) من ذكر مفهوم التزكية هنا ؟

خلق الله الانسان وخلق معه غرائز وطاقات لايمكن التغاضي عن إشباعها بأي حال من الاحوال وتأتي في طليعة هذه الطاقات غريزة حب التملك ، فالانسان مجبول على تملك ما تناله قواه من ثروات ـ أني كان نوعها ـ وقد تستبدّ هذه الغريزة بالانسان فتجعل من حياته حياةً جافة سلبيةً لاتحمل في رحابها أي نوع من أنواع الرحمة والعطف ، فتزدحم الحياة بالصراع العنيف بين الدموع والابتسامات ، ويحدث التناقض المرير بين أصحاب الثراء الفاحش وسواهم من الفقراء والمعدمين .

وهذا مايجريَ فعلاً في المجتمعات الرأسمالية الجائرة ـ اليوم ـ حيث تستبد غريزة التملك لدى الافراد فتتحول الحياة الى شبح من الانانية والاستئثار ، ضحيته الاخلاق والرحمة والعطف ومحصلة الصراع والاضطراب النفسي والاجتماعي ، واستبداد هذه الغريزة يزداد شدة وخطرا اذا وجد مقياسٌ يجعل من الحياة مجرد لذة مادية ومنفعة بهيمية خالصة محدودة باطار الحياة الموقوتة ، وهذا ما ينطبق ـ فعلاً ـ على الحياة التي جسدتها الحضارة الغربية الهوجاء ، .

ويتطرف لون جديد من الحضارة تحت مطارق العسف والاستئثار، فيعلن : أن علة هذا الفساد الاجتماعي ، إنما هو غريزة حب التملك ، ولذا وجب أن تمحى هذه الغريزة من برامج الحياة الانسانية ـ مهما غلا الثمن وعظمت التضحيات ـ ولذا وضعت برامج الكبت والقتل الجماعي ، ومصادرة الحريات ، تحريا عن هذه الغريزة الفطرية .

ولكن هذا المذهب الاجتماعي المتمثل بالنظام الاشتراكي قد تعرّض للتحوير والتبديل ـ غير مرة ـ بحجة التدرج في التغيير

الاجتماعي ، ولكن الحقيقة : إن الفطرة هي التي حتمت هذا التبديل المتكرر ، بل إن غريزة التملك هي التي وقفت سدا منيعا في مواجهة المشاريع التي أريد منها أن تلغي هذه الغريزة من قاموس الحياة الانسانية .

ووقوع النظام الاشتراكي في هذا الخطأ كان نتيجةً للتصور الخاطيء الذي تصور إزاء قضية التملك ، فأعتقد ـ خاطئا ـ أن أساس المحنة إنما كان بسبب وجود غريزة التملك التي جسدتها الحضارة الرأسمالية التي أمتدت سيطرتها على الانسانية ـ زمناً غير قصير ـ .

وهذا التصور خاطيء لاطائل تحته ، لان المشكلة إنما نشأت بسبب المفهوم المادي للحياة الذي تبنته الرأسمالية ، فجعلت من الفرد كائنا همّه أن يجمع المالَ ، ويكرّس طاقته لتكديس الثروات بصفتها منشأً للسعادة واللذة والمنفعة ـ بزعمها ـ [1] .

وحين تخطي الاشتراكية هذه الحقيقة ، تبحث عن سببٍ آخر ، فتعتقد أن المشكلة منشؤها غريزة التملك ـ لاغير ـ ولذا وجب محوها ـ أني كان الثمن ـ .

ويأتي دور الاسلام بصفته مذهبا اجتماعيا يتناول نشاطات الافراد وميولهم بصورة شاملة ، فلابدّ له من رأيٍ مذهبي صميم إزاء هذه المشكلة ، ولابدّ له ـ بعد ذلك ـ أن يعطي الدواء الناجع والحلّ الحاسم للواقعة التي يواجهها ، سيّما وهو منهج الله ، خالق هذا الانسان ومدبّر أموره والمطلع على ما تنطوي عليه خلجات نفسه .

ليعلن : أن منشأ هذه المشكلة إنما هو المقياس المادي الذي دانت به الحضارة الغربية . وليست المشكلة كامنةً في غريزة التملك ـ عينها ـ لان غريزة التملك أصيلة في كيان الانسان ، لايمكن محوها الا اذا

---

(١) المدرسة الاسلامية ج ١ محمد باقر الصدر .

بدل هذا الانسان الى غير هذا الانسان .

ولما كانت المشكلة تحمل هذا اللون من الثبوت والاستقرار ، فلابدّ أن يبحث الانسان عن تطوير جديد للمفاهيم عن الحياة ، ليخفف من وطأة هذه الغريزة ، فينشأ للانسان مفهوم" جديد" للسعادة واللذة والمنفعة .

وفعلاً ، حقق الاسلام هذه المعجزة بأعلانه مفهوما جديدا للسعادة، ومفهوما جديدا عن الحياة ، ومفهوما جديدا عن اللذة والمنفعة .

وحين يعلن الاسلام هذه المفاهيم ، فانما يعلن : أن المشكلة لاتحل الاّ عن طريق واحد : هو طريق الاعتراف بغريزة التملك ــ كحقيقة فطرية ــ والعمل على توجيه هذه الغريزة عن طريق تربية روحيةونفسية على أسس منهجية رصينة ، يُصمّمها خالق الفطرة لانه أعلم بصلاحها من سواه .

وكانت إحدى المقوّمات التي رسمها الاسلام الحنيف لتوجيه غريزة التملك توجيها تربويا ينتفع منه الفرد والمجتمع بعيدا عن عنفوان الانانية والاستئثار ، كانت احدى هذه المقومات المتينة : فرض ضريبة الزكاة على الاغنياء الذين يتمتعون بحق المواطنة الاسلامية في نطاق الدولة الاسلامية ، وهذه الزكاة تمثل ضريبة سنوية لايمكن الهروب عن دفعها اطلاقا ما داموا يعيشون في مستوى لائق من العيش .

ومن الحكمة البالغة : أن الاسلام حين يفرض هذه الضريبة لم يجعلها مجرد ضريبة يازم الاغنياء الاتيان بها ــ فحسب ــ . وانما اضفى عليها طابعا روحيا حين أعلن كونها عبادةً من العبادات الاخرى كالصلاة والصيام ، والانسان مسؤول عن دفعها أمام ربه الذي « يعلم خائنة الاعين وما تخفي الصدور » . ومن ثمّ ينطلق الاسلام ليعطي

هذه الفريضة صفة قانونية صارمة يعاقب عليها القانون الاسلامي في الدنيا عقابا صارما ، وحين يلزم الاسلام اتباعه باداء فريضة الزكاة انما يستهدف توجيه غريزة التملك توجيها يجني الفرد والمجتمع ثماره بحيث تكون الثروات ملكا لجميع أبناء الامة لايستبدّ بها فردٌ من الناس ــ أو فئة ــ على حساب الآخرين .

وتعطينا هذه الصورة الوضاءة من منهج الله سبحانه تلقينا تجعلنا نؤكد أن الفرد والمجتمع في المنهج الاسلامي لاحدود بينهما ، وانما تتشابك مصالحهما ، فيعمل الفرد من أجل المجموع ، ويعمل المجموع من أجل الفرد ، وفقا لنظام رصين بعيد عن الاصطدام والاعتساف ، ولا تتحقق هذه الفضيلة ــ بل هذه المعجزة الابتزكية النفوس من عنفوان الانانية والاثرة التي فرضت الزكاة لتحقيقها في كيان الانسانية.

وهذا السر ذاته هو الذي دعا الزهراء بنت محمد (ص) لتعلن كون الزكاة تزكيةً للنفس ، فانها ــ لعمر الحق ــ تزكية للنفوس البشرية من أنانيتها واستئثارها ودوافعها الفردية الجافة ، وتحويلها الى طاقات انسانية هادفة تخدم المجموعة الانسانية .

وثمتّ حقيقة أخرى نلمسها من كشف الزهراء (ع) لفلسفة الزكاة ، تلك الحقيقة ، تتمثل في أن النفوس البشرية سيختفي ما تنطوي عليه من بغضاء واحقاد ، سيّما نفوس المحرومين ، فهم حين يرون أصحاب الثروة يدفعون لهم نصيبهم منهامتمثلابضريبة الزكاة ، فستكون نظرتهم لهؤلاء نظرة حب واكبار ، يتحول التناقض والعداء بعدها الى إخاءٍ واخلاص ومحبة .

وحين تكشف الزهراء (ع) الوجه الاول من فلسفة الزهراء نكشف ــ بعد ذلك ــ الوجه الثاني لها ، فتقول : « ونماءً في الرزق»

فليست الغاية من الزكاة تزكيةً للنفوس من الانانية والبغضاء ـ فحسب ـ وإنما لها غاية تتعلق بمحيط الانسان ـ نفسه ـ فينمو رزقه ويزداد ثروته وتكثر خيراته .

وحين تعلن الزهراء (ع) هذه الحقيقة لم تقلها عفواً أو شططا ، وانما تلتمس هذه الحقيقة من كتاب الله سبحانه حين يعلنها بقوله : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركاتٍ من السماء والارض » [1] .

والزكاة عبادة يعد منكرها في عداد الكافرين ، ومن يمنع قيراطا منها ، فليمت ان شاء يهوديا أم نصرانيا ـ كما ورد في السنة الشريفة ـ .

وحين تملك الزكاة هذا المقام الرفيع بين معالم التشريع الاسلامي، فلابد اذن أن تكون في طليعة شروط الايمان والتقوى ، ولما كانت البركات منوطة بالإيمان ، فقد انكشف لنا السر الذي أعلنته الزهراء (ع) من أن الزكاة نماءٌ في الرزق ، ذلك لانها عنوان الايمان والخضوع الحقيقي لله سبحانه ، فلابدَّ أن يكافيء الله عباده بالتفضل عليهم من رزقه بعد استجابتهم لندائه المقدَّس .

والصيام تثبيتا للاخلاص

وبعد هذا البيان الذي تصور الزهراء (ع) فيه فلسفة الزكاة ، تكشف لنا فلسفة الصيام الذي يعتبر لبنةً في البناء التشريعي الاسلامي الضخم فتقول : « والصيامَ تثبيتا للاخلاص » .

فترسم أمامَ الاجيال الاسلامية الرائدة هذه الحقيقة الناصعة التي

---

(١) سورة الاعراف ، آية / ٩٦ .

أراد لها الله سبحانه أن تتحقق بفضل فريضة الصيام ـ صيام شهر رمضان المبارك .

والصوم الذي فرض الاسلام طبيعته وحدد أطاره : هو أقلاع عن المتطلبات الجسمية : من أكل وشرب وجماع ، وفيه تتحقق عملية قهر أعنف الغرائز في كيان الانسان ، فتقهر غريزة المعدة التي تتطلب الاشباع الدائم ، والغريزة الجنسية التي تتطلب سد حاجتها بألحاح متواصل . ولا يقف الامر عند هذا الحد ، وانما يتعداه الى صوم الجوارح ، فللعين صوم" عن رؤية المحرمات ، وللأذن صوم" عن سماع المحظورات ، وللسان صوم عن قول المنكرات ، ولليد والرجل كذلك صوم" عن الاعتداء أو السرقة أو السير في درب لايقرّه حكم الله تعالى .

وهذه الامور الاخيرة وان لم تكن مباحةً في غير شهر رمضان ، الا أن شهر الصوم قد أعطي تمييزا عن غيره من سائر الايام ، فربّما قد تحدث هذه الامور لدى البعض من الناس ، ولكنها لاتضر بصلاة أو زكاة أو نحوها ، الا الصيام فان وجود مثل هذه المنكرات يخرج الانسان عن كونه صائما .

وثمّة نقطة أخرى تلوح لنا كشعاع ينبثق من فريضة الصيام ، هي : أن المسلم الذي استطاع أن يكبت أشدّ غرائزه إلحاحا وأعظمها خطرا فانتصر عليها هازئا بالمادة وأوضارها ، إن انسانا هذا شأنه سيملك من الطاقات ما يجعله أقدر على مواجهة طواغيت الارض وقلع معالمهم في حياته وواقعه ، بل إن إنسانا قهر نفسه ومتطلبات جسده ، هو أقدر على أن ينتصر لمبدئه الذي استجاب هو لندائه فمنع نفسه عن لذاذاتها ومشتهياتها ليدكّ صروح أعدائه، وان ادلهمّ الخطب وازدحم الدرب بالمخاطر .

يمتنع المرء عن الطعام والشراب ، وهو قادر على تناولها بعيدا عن أعين الناس في خلواته في وحدته . ولكنه يقهر نفسه ولذاذاته لانه يستشعر بتقوى الله فاطر الارض والسماء ، وحينئذ يبرهن على فاعلية إيمانه وعلى مدى اخلاصه لله سبحانه .

أجل إن في الصوم تتحقق أبعاد الاخلاص لله سبحانه فتتجسّد واقعا ملموسا لان الصوم لايتطرق اليه الرياء [1] لانه ترك لاعز شي في الحياة هو الطعام هو اللذة المطلقة هو متطلبات الجسم .

والصوم ــ بعد ذلك ــ دورة تربوية يتلقى الانسان فيها مختلف الدروس الجديدة ، فتخلق لديه عادات جديدة حتى المعدة نفسها تعتاد على التقسيم الجديد في وجبات الطعام . فكيف بالسلوك ؟

إن انسانا اعتاد ترك الكذب والغيبة والنميمة ، والنظر المحرّم والسخرية لمدة شهر واحد ، أصبح يملك من القدرة على الإستمرارية في هذا السلوك الاسلامي زمنا . وشهر" في كل سنة ليس بالامر الهيّن، إنه يؤلف نسبة مئوية جدّ كبيرة من العمر يعيشها الانسان في كنف الاستقامة وفي رحاب مدرسة إسلامية تصهر السلوك المعوّج وتبيد جراثيمه. والصوم حين يمتلك هذه المزايا التي تنعكس الى شدّ العبد بربه شدا وثيقا ، هو الذي أملى على الزهراء (ع) ــ وهي خريجة مدرسة الوحي ــ أن تعلن عن كون الصيام تثبيتا للاخلاص ، فهو تثبيت لاخلاص الانسان لربه بعد استجابته لندائه ، وتركه لكل لذاذاته تقربا له وانقيادا لتلقيناته المباركة ، وعلى هذا التقدير يصبح الصوم اختبارا لدى استجابة المرء لأوامر ربه الكبير المتعال ، وحين يستجيب المرء لذلك فقد حاز التثبيت لاخلاصه ، وربح بعد ذلك مرضاته تعالى .

---

(١) المجالس السنية ج ٥ ــ محسن العاملي .

والحج تشييدا للدين

وبهذه العبارة القصيرة تكشف الزهراء عن فلسفة الحج وأهدافه السامية ، فهو تشييد للرسالة وإقامة لصروحها الشامخة . ولابدّ أن تحمل هذه العبارة الجليلة سراً كامنا خلفها ، اذ لماذا تعلن الصديقة (ع) كون الحج تشييداً للدين دون غيره من الفرائض ، بل لماذا أعطت الزهراء هذه الفريضة هذا المقام الرفيع دون غيرها من الفرائض الاسلامية؟ فالحج في حقيقته مؤتمر إسلامي كبير يضم ممثلين عن مختلف الشعوب الاسلامية على سطح هذا الكوكب الارضي .

والانسان المسلم الذي يحضر هذا المؤتمر الاسلامي السنوي المعقود عند أشرف بقعة في الارض «الكعبة المشرّفة» يبذل المال ويبذل الوقت والجهد ولكنه سيعيش واقعاً إسلاميا ويحيا مناخا إسلاميا يشع بالوحدة وتسوده المساواة المطلقة والتقارب الروحي والتعارف والإخاء.

وحين يعيش الحجيج هذه الاشعاعات التي تنبثق من فريضة الحج فانما يعيشون الاسلام حقيقة واقعة بصورة مصغرة مرة في كل عام ، فهم يعيشون الوحدة التي حمل الاسلام لواءها بكل أبعادها حيث يجتمعون في بقعة واحدة ويردودن نداءً واحدا ، ويحملون هدفا واحدا، هو رضوان الله تعالى ، وتسودهم المساواة بكل أبعادها ايضا ، فتلغى الفوارق كما أراد لها الاسلام في واقع الحياة حيث يتحقق هذا الشعار بالزي الواحد الذي يرتديه الابيض والاسود ، العربي والاعجمي ، الرجل والمرأة ، الكبير والصغير ، الغني والفقير ، الرئيس والمرؤوس ؛ فاللباس موحد ، والهتاف موحد ، والعمل واحد ، والفعاليات واحدة ؛

وهذه المراسيم تمثل المساواة التي رسم الاسلام حدودها بأعلى صورها وأنصع ألوانهـا ، ثم تتحقق الاخوّة بأجلى مظاهرها ، فلا اغتياب ولا سباب ، بل ولا جدال ، وعلى هذا الاساس يتحقق مفهوم الاخوة ويتجسّد حقيقة ملموسة لاحديثا أو لفظا مطلقا .

والى جانب هذه الصورة المصغرة للمجتمع الذي يعمل الاسلام على إرساء قواعده وتشييد معالمه ، ينشأ التفاهم والتعارف بين ممثلي الشعوب الاسلامية ، فيلتقي الفارسي بالهندي والعربي بالتركي وغيرهم لكي يتعرفوا على مشاكلهم ، فيهتدوا لعلاجها ، ويبحثوا في وسائل عزتهم ويزيلوا ما يعيق نهضتهم من أشواك ، فيستفيد كل شعب من أشقائه ليسير العمل متناسقا لبلوغ الغاية التي أرادها الله لهذه الامة لتكون كما أراد الله لها « خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناس » . وحين تنكشف لنا الفوائد الجليلة التي شرع الحج من أجلها من تحقيق لواقع اسلامي مصغر أو فهم للمشاكل المشتركة وغير المشتركة لدى الشعوب الاسلامية .

حين ينكشف لنا هذا المغزى الرصين من تشريع الحج نكون قد فهمنا الدافع الذي حمل الزهراء (ع) لتعدّ الحج تشييداً للدين .

فهو ــ لعمر الحق ــ تشييد للدين إذا جنى المسلمون ثماره التي شرعه الله سبحانه من أجلها . ولعلنا وفقنا لعرضها قبل قليل .

* * *

والعدل تنسيقا للقلوب

ثم تنطلق الزهراء (ع) لتبيان الغاية التي شرّع العدل من أجلها، لماذا العدل في القضاء بين المتخاصمين ، ولماذا العدل بين الاجناس ، ولماذا العدل في الحكم ، ولماذا العدل بين الغني والفقير ؟ ؟

تجيب الصديقة الزهراء (ع) فتقول : شرّع ذلك لتنسيق القلوب . وجمع شتاتها وتأكيد إخائها وتحقيق صفائها وتوادّها وائتلافها ، ولكن الى أي مدى سيحقق هذا العدل الذي جعله الاسلام ركنا من أركان بنائه التشريعي الضخم ــ التنسيق والصفاء ، في قلوب ابناء النوع الانساني ــ ؟ ؟

جلجل نداء الاسلام في الآفاق معلنا إلغاء الفروق ،وإلغاء الطبقات، وإلغاء كل أنواع التمايز بين أبناء الجنس البشري . ولاجل تحقيق هذه الشعارات أعلن أحكاما سياسية واحدة ، واحكاما جنائية واحدة واجتماعية واحدة يخضع لها كل انسان دون تمييز على أساس الطبقة أو الجاه أو المـال او اللون او الجنس او القبيلة ، فاذا سرق اعلى الناس جاها او أكثرهم مالاً أو أعزهم قبيلةً ، فان حكم قطع اليد ينطبق عليه كما ينطبق على أقل الناس حظا من المال أو الجاه ، كما يقف إمامُ الامة وقائدها للترافع أمام القضاء الاسلامي الى جانب امةٍ حبشية .

وقد تجلى ذلك على لسان خاتم الرسل محمد (ص) حيث يقول ــ موضحا حدود العدالة الاسلامية ــ : « لو سَرقتْ فاطمةُ بنت محمد لقطعتُ يدَها » .

وعلى ضوء هذا المفهوم الرصين للعدل الاسلامي تحقق أروع إخاء في تاريخ البشرية بين شتى الاجناس ومختلف الطبقات ، حيث كان المجتمع الاسلامي يحتضن البدوي الفقير الى جانب المكي المتمول ، ويحتضن الفارسي الى جانب العربي ، ويحتضن الرومي كما يحتضن الحبشي .

وحين تتحقق العدالة بين المجموعة البشرية ـ على هذا الاساس ـ تدرأ الاخطار التي تتصدع المجتمعات بوقوعها ، وتختفي كل أشباح الفرقة والعصيان والتصدع الاجتماعي والثورات والتكتلات الجانبية .

وما الثورات العسكرية والرجّات السياسية والاضطرابات الاجتماعية التي ترزح المجتمعات تحت وطأتها اليوم ـ الا حصيلة لفقدان عنصر العدالة في الحضارات التي تنتظم حياة الافراد والمجتمعات ـ اليوم ـ .

وحين يملك عنصر العدل هذه الفاعلية في خلق المجتمع المتراصّ المتوادد ، فقد انكشفت لنا الغاية التي من أجلها أعلنت الزهراء (ع) كون العدل تنسيقا للقلوب . أجل ، إن العدل تنسيقٌ للقلوب ، لانه السبيل الاوحد الذي يجد الانسان فيه كرامته وقيمته أزاء غيره من الناس . وحين يعلم الانسان أن في الواقع قوةً تتمثل بعنصر العدل تحفظ له كيانه وحقوقه بين الآخرين ، كان حريا بهذا الانسان أن ينحاز الى هذا العدل الذي حفظ حقه وقيمته دون أن يبحث في وسائل العصيان أو التمرد أو التكتل الجانبي ، لان هذه الامور لاتقوم في واقع الحياة الانسانية مالم يختفِ عنصر العدل في الواقع الانساني مما يضطر الانسان لنفض غبار الذل والظلم بأساليب تختفي فيها لغة التفاهم والرحمة ، الامر الذي يفرّق الجماعات ويوهن الامم ويقوض الدول .

وطاعتنا نظاما للملة وامامتنا أمانا من الفرقة

وهنا تبرز الزهراء (ع) مفهوما إسلاميا ، ما أختلفت الامة الاسلامية في شيء كأختلافها فيه ، ذلك : هو المفهوم السياسي الاسلامي الذي يبتني على أساسه الكيان الدولي والاداري لهذه الامة .

ومع الإيجاز الذي سلكته الزهراء (ع) في تبيان معالم الرسالة الاسلامية، الا أنها قد أبرزت هذا المفهوم بجانبيه : التشريعي والتطبيقي، لان المفهوم السياسي ــ كما هو معلوم ــ يمتلك السلطة التي تموّنه بالتشريع والاحكام التي تستند الدولة عليها في فعالياتها ، كما أن المفهوم السياسي أيضا يمتلك الى جانب ذلك القوة الفاعلية التي تتولى مهمة التنفيذ لعنصر التشريع .

وقد عبّرت الزهراء (ع) عن العنصر الاول ــ عنصر التشريع ــ بالفقرة الاولى من عبارتها : « وطاعتنا نظاما للملة » .

حيث أعلنت : ان طاعة أهل البيت ــ عليهم السلام ــ سيحفظ الشرع المقدّس من كل اختلاف أو تصدع ، وسيسير على نسق واحد ، بعيدا عن الآراء والظنون المرتجلة التي تبعد الشرع عن حقيقته .

وهنا تبرز عظمة الزهراء (ع) حتى في حديثها المسترسل حيث تقول (وطاعتنا) فهي لم تقل : محبتنا أو مودتنا أو حبنا ، وإنما أعطت هـذا المفهوم جانبه الثابت غير الخاضع للجدل والتأويل ، اذ أنها لو استعملت لفظة : المودة أو المحبة ، لامكن صرف اللفظ هذا الى غير معناه ، لقيل مثلا : محبة أهل البيت واجبة ، ولكن لايعني عدم جواز اتباع غيرهم والخضوع له سياسيا أو إداريا . والزهراء حين تعلن أن

طاعة أهل البيت على الصعيد التشريعي أمر فرضه الله سبحانه كما فرض الايمان والصلاة ـ إنما تقرر بذلك حقيقة منطقية ثابتة نطق الرسول الاكرم (ص) بها وأكدتها عشرات المواقف بشهادة كبار الصحابة والتابعين .

وقد اتخذ ذلك الطابع الالزامي الصارم على لسان الرسول القائد يوم أعلن أمام الالوف المحتشدة ـ وبعد عودته من حجة الوداع ـ إمامة علي (ع) بقوله : « من كنت مولاه ، فهذا علي مولاه ... » .

ومهما يحاول بعض الكتاب والباحثين في صرف لفظ هذا الحديث عن معناه الحقيقي ، فانهم غير قادرين مهما أوتوا من قوة استدلالية على إبراز مفهوم غير مفهوم الطاعة والانقياد أو يزيغون عن الحق .

وآخر ما اجتمعت عليه كلمة هؤلاء الباحثين هو القول بأن الحديث أرادمجرد المحبةوالعطف لاغير .ولكننا ـمع استغرابنا لهذه التأويلـ نقول : ان الله سبحانه وتعالى قد جعل المؤمنين إخوة ، وقد جعلهم نفسا واحدة كقوله تعالى : « انما المؤمنون إخوة » « ولا تلمزوا أنفسكم ... » .

فاذا كان الله سبحانه قد قرر هذا المفهوم التشريعي الثابت في خلق الامة المتحابّة المتراصة ، فما معنى استيقاف الرسول (ص) لتلك الجموع الاسلامية الغفيرة في غدير خم ليقول لها : من كنت محبوبا عنده فليحب عليا [1] .

ألم يكن هذا القول عبثا ما دام القرآن والرسول قد قررا سابقا مبدأ الاخوة الذي يؤلف مفهوما أوسع من المحبة ، بل ان مبدأ الاخوة اذا تمكن في النفوس البشرية ، منحها أعظم تيّار عاطفي من المحبة

---

(١) المراجعات / شرف الدين .

والوداد .

وثمة نقطة أخرى يجدر أن نشير اليها ، تلك : هي أن الرسول القائد (ص) قد أعلن وجوب طاعة أهل البيت (ع) وعدم التمذهب بمذهب غيرهم في مئات المواقف وقدرواها الخاص والعام ــ وفي طليعتها قوله (ص) : « إني تركتُ فيكم : ما أن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، كتابُ الله حبل ممدود" من السماء الى الارض ، وعترتي أهل بيتي ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوضَ فأنظروا كيف تخلفوني فيهما ...» . وقوله (ص) : « الا أن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح َمن ركبها نجا ، ومن تخلفَ عنها غرق .. » ــ .

وحين يعلن الرسول (ص) ذلك ، فانه يعلنه بدافع الحرص على المصلحة الاسلامية العليا لكي تبقى هذه الامة (خيرَ أمة أخرجت للناس) وهذا ما دفع الزهراء لتعلن بأن طاعة أهل البيت (نظاما للملة) .

أجل ، إنها حفظ للشريعة ، وتنسيق لاحكامها ، وصون لها من الظنون والتخمينات والآراء والتمذهب على حسابها ، أجل لو قدّر لهذه الامة أن تسلك دربَ أهل البيت (ع) في معرفة أحكامها واستلهام معرفتها ، لما وجدنا للتمذهب سبيلا ، ولا للاختلاف في الفتيا والاحكام مجالاً في قاموس حياتنا ، ــ ولكنها ــ ويالأسف الشديد ــ جناية الاجداد قد جنى ثمراتها الاحفاد .

ثم تكشف الزهراء (ع) الشطر الثاني من المفهوم السياسي في الاسلام ، فتقول : « وأمامتنا أماناً من الفرقة » .

واذا كانت الزهراء قد قصدت الجانب التشريعي من المسألة الإدارية لشؤون الامة في العبارة الاولى « وطاعتنا نظاما للملة » ، فأنها ترسمَ الآن ــ الشق الثاني من الموضوع ــ ذاته ــ ، فتعلن كون

أمامة أهل البيت (ع) وقيادتهم لهذه الامة مفروضا من الله سبحانه كسائر الواجبات ، ولكن علة هذا الفرض الجديد تتجلى في تخليص الامة من شبح التمزّق والتخرب والانقسامات المصلحية ، لان إقصاء أهل البيت (ع) وهم معدن الحكمة وخريجو مدرسة الوحي ــ عن مركزهم القيادي يجعل من الممكن قيام صراع سياسي على الحكم والادارة ، لان سائر الناس ــ بعد أهل البيت ــ يرون أنفسهم جميعا أهلاً لقيادة الامة • أما اذا تولى أهل البيت هذا المقام الرفيع فان أحدا من الناس غير قادر على بلوغ مقامهم الذي بوأهم الله سبحانه فيه من معرفة تامة لمعالم الشريعة الاسلامية أو من عصمة نفسية تحفظهم من كل شطط أو خطأ في أحكامهم وقراراتهم ومن كل أثم في سلوكهم وفعالياتهم واذا كان لاهل البيت (ع) هذا المقام الرفيع في الامة الاسلامية ، أصبح بمقدورهم أن يقودوا الامة الاسلامية الى شاطيء السعادة الذي هيأه الله سبحانه لهذه الامة الكريمة ، واذن فان الزهراء (ع) وهي غرس النبوة ــ قد ضربت على الوتر الحساس من المسألة حين تعلن : أن أمامة أهل البيت (ع) ابتعاد عن الفرقة والاختلاف على الصعيد السياسي والاجتماعي •

والجهاد عزا للاسلام وذلا لاهل الكفر والنفاق

والجهاد عملية تحريرية : يتولاها المعسكر الاسلامي لتخليص الانسانية من السيطرة الجاهلية بشتى أنواعها ومستوياتها •

وهذه العملية التحريرية تجري في أعلى المستويات ، حيث تعبأ فيها قوى الايمان المادية والفكرية والروحية لإنجاح هذه العملية •

وغالبا ما يبرز فيها عنصر القوة العسكرية لإحراز النصر وتحقيق العملية التحريرية الكبرى ،واحراز النصر ــ هذا ــ ليس نصرا لمعسكر الايمان ــ فحسب ــ بل هو في الحقيقة نصر" لمن يعيش تحت السيطرة الجاهلية من أبناء النوع الانساني .

والجهاد الى جانب معطياته التبشيرية والتوسعية لعدد الواقفين تحت راية الله تعالى ، الجهاد الى جانب هذه المعطيات ، فرض عبادي تتولاه الامة الاسلامية ، استجابةً لنداء الاسلام المفروض عليها ، لايجوز ان تتقاعد عنه بأي حال من الاحوال ــ اللهم الا اذا أصيبت بوهن فكري تصبح معه غير قادرة على فهم فريضة الجهاد وحدودها ومتطلباتها فحينئذٍ ــ والعياذ بالله ــ تتجاهل أو تجهل هذا الفرض المقدس" فتنسحب عن مسؤولياتها في التأريخ البشري .

وربما تتعرض لغزو جاهلي أهوج يفقدها حتى أصالتها وطابعها ــ كما هي عليه اليوم ــ .

والزهراء (ع) حين تعكس لنا صورةً حية عن فريضة الجهاد ، إنما تعكسها لهذه المعطيات الكبيرة التي تهبها لتاريخ الامة المجيدة . ولكن الزهراء (ع) حين تستقرىء لنا الغاية التي شرع الجهاد من أجلها تضع أمام الأجيال نقطتين هامتين تكشف عن طريقهما الحقيقة التي شرع الجهاد من أجلها بأقصر وأفضل السبل ، فهي مع شدة إيجازها لكنها قد كشفت حدود فلسفة الجهاد .

فالجهاد في نظر الزهراء يحقق النصر المؤزر للرسالة الاسلامية ــ أولاً ــ ويكسبها العزة والظهور على كل المناهج الجاهلية المعوجة ويهزم قوى الضلال وينكسّ رأيتها السوداء لتحلّ محلها راية التوحيد الناصعة التي تحتضنها القلوب وتتغنى بها الافواه .

والى جانب هذه النقطة الإيجابية يتحقق مكسب آخر ، ولكنه ذو وجهين حيث يتمخض عن الجهاد إذلال المعسكر الجاهلي وتوهين مكائده ــ خارج الديار الاسلامية ــ كما يتمخض عن هذا الجهاد المقدّس صفعة شديدة لأهل النفاق الذين يؤلفون حزبا لتظاهر مطاياه بأعتناق المبدأ الاسلامي ، ولكنهم يخفون التحزّب لغيره من الحضارات الجاهلية ، وهم يتربصون بالمسلمين الدوائر وقد يتصلون بأسيادهم في المعسكر اللاإسلامي ، معلنين أنهم معهم ، وسيكونون أداةً تخريبية في داخل المعسكر الاسلامي ، ولكن هذه الفئة القلقة تقف على شرفة لترى نتائج المعركة بين الايمان والضلال ، وما أن تعلن الانباء انتصار معسكر الايمان العتيد على خصومة الا وظهرت سيّماء الذلة والمسكنة على أهل النفاق وخابت آمالهم وتمنياتهم وخسروا الوعود التي وعدهم ساداتهم بهــا ، كل ذلك بفضل المسؤولية العظيمة التي يتحمل الجهاد تبعاتها في إذلال أعداء الاسلام ومعسكره العتيد .

وهذه الميزة التي يتجلى بها الجهاد هي التي أملت على الزهراء (ع) لتكشف النقاب عن ألغاية التي شُرع من أجلها ، فهو ــ على حــد تعبيرها ــ قد جعله الله عزاً للاسلام ، وذلاً لاهل الكفر والنفاق .

والصبر معونة على استيجاب الاجر

وتكشف لنا الزهراء (ع) حقيقة كبرى تتجسد على يديها كلّ الآمال ، وكل الاهداف التي رسمتها الرسالة الاسلامية لهذا الانسان تلك الحقيقة هي : الارادة والاقــدام على تحقيق متطلبات الشرع ، فبغير الارادة والصبر في العمل لايمكن لانسان أن يحقق مطالب الرسالة

الاسلامية . واذن ، فالصبر ـ في منطق الرسالة ـ : الجسر المعقود بين الواقع النظري للشريعة والواقع العملي لها ، حيث تتجسد الافكار على يديه واقعا محسوسا يبرز في فكر الفرد وسلوكه وكافة ألوان نشاطه ، وقد يصبح الامر من القضايا البديهية المسلّم بها اذا قلنا : ان الصبر المرادف للأقدام ومواصلة العمل والاستمرار في بذل الجهد من أجل تطبيق معالم الشريعة الاسلامية قد جعله الاسلام على لسان دستوره الخالد ركناً أساسيا من أركان المجتمع الذي يقف تحت راية التوحيد المقدسة كما جاء ذلك في قوله سبحانه : « والعصر ان الانسانَ لفي خسر الاّ الذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ وَتواصَوا بالحق وَتواصَوا بالصبر ... » .

والصبر ـ في منطق الحضارة الاسلامية ـ يلتزم جانبين في حياة المجتمع المسلم والفرد المسلم ، فهو صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية .

ولما كان الاسلام أساسا لاينهض الاّ على هذين المفهومين الكبيرين في تحديد معالم تشريعه ، اذن ، فقد أصبح للصبر ـ بشطريه الايجابي والسلبي من واقع الشريعة الاسلامية ـ عظيم الاثر في تحقيق أهداف الرسالة كعامل مساعد أو كعنصر يدخل في أطار كل الفعاليات التي ينهض الفرد أو المجتمع المسلم بأعبائها .

وحين يملك الصبر هذا المقام الرفيع في التشريع الاسلامي ، فقد أصبحنا اكثر إحاطة بالغاية التي دفعت الزهراء (ع) لتعطي هذا المفهوم : هذا الجانب الكبير من الاهتمام ، حيث ضربت على الوتر الحسّاس من المسألة بأعلانها : أن الصبر معونة على إستيجاب الاجر ، أجل فهو عنصر مساعد فعّال يجعل المرء المسلم أكثر قدرة على كسب الاجر والرضوان .

والامر بالمعروف والنهي عن المنكر مصلحة للعامة

الامر بالمعروف والنهي عن المنكر عملية كبيرة تحمل فاعلية ضخمة في إصلاح كل الانحرافات ــ التي يتعرض لها المجتمع الاسلامي ــ عن معين الرسالة الإلهية .

وهو على هذا التقدير عملية علاجية تنمحي على أساسها كل الآثار المرضية التي تصيب جسم الامة الاسلامية بمرور الازمان ، لان الامة الاسلامية ليست بدعا من الامر ، فهي أمة كبقية الامم : ترتفع وتنخفض تنهض وتهجع ، تتحرك وتسكت ، ولما كانت هذه الامة : هي (الامة الوسط) التي أرادها الله سبحانه أن تكون شاهدة على الناس متميزة عن غيرها من الامم ، تحمل هوية السماء وتتلمذ على الوحي لتتخرج أجيالها ، وهي تحمل شارة (خير أمة أخرجت للناس) .

حين يكون لهذه الامة الاسلامية هذا النصيب الاوفر ، الذي خصها الله سبحانه فيه ، فلابدّ أن يمنحها ــ بلطفه ــ منهجا تعود على أساسه الى عزتها ، إن ادلهمّت بها الخطوب واجتمعت عليها المحن ، وفعلاً قد أمتدت يد الرحمة الى هذه الامــة فأتحفتها بمنهج الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لتتخذ منه قاعدةً عملية ضخمة ــ يتبنى على أساسه مجدها وكرامتها كلما تكالبت عليها أمم الجاهلية لتزحزحها عن مقامها الذي بوأها الله فيه .

وبعد أن دلها الله تعالى على طريق سؤددها لم يترك أمر سلوكه من قبل الامة اختياريا ، وإنما منحه الصفة الإلزامية . والصفةالالزامية أعلى الدرجات للتكليف في التشريع الاسلامي .

ولكن هذه السمة الالزامية أعطيت الصفة الكفائية . وعلى هذا الاساس أصبح الامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبا كفائيا . إن قام به شخص أو جماعة من الناس سقطت مسؤوليته عن الجماعات الاسلامية الاخرى ، والقيام بمسؤولية الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ هنا ـ يتطلب تحقيق المطالب التي شرع من أجلها ، فليس المراد بالامر والمعروف أن يقوم به شخص أو جماعة من الامة الاسلامية ، وبمجرد قيامهم بالعمل ودون تحقيقهم لمتطلباته ، يسقط الواجب عن الامة بحال ، إذ ليس المراد هذا ، وإنما يتحقق سقوط المسؤولية عن الامة الاسلامية بتحقيق هذا الشخص أو هذه الفئة كل مستلزمات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر : من إلغاء للمنكر وإقامة المعروف .

فلو ظهرت لدى بعض أفراد الامة الاسلامية عادة ممارسة الميسر ، وقام جماعة من المسلمين في إنكار هذا المنكر بالسبل التي رسمها الاسلام : من حكمة وموعظة أو نحوها ، فان استطاع هؤلاء أن يأخذوا على أيدي هؤلاء المنحرفين ، ويمنعوهم عن التمادي في هذا المنكر ، سقطت مسؤولية الامر بالمعروف وإنكار المنكر عن الامة كلها .

أما لو فشل المخلصون الذين تصدروا لمهمة الامر بالمعروف ، في تحقيق هذا الجانب الاصلاحي ، وجب على الامة الاسلامية ـ برمتها ـ أن تتولى هذه المهمة حتى يتحقق الاصلاح أو تسقط المسؤولية عن الامة بعد قيامها بالمهمة ، وعدم استطاعتها لاستفحال المنكر مثلاً ، أو لوجود ظروف تمنع انكاره [1] وحينئذٍ ينطبق عليها تعليم السماء القائل « لايكلّف الله نفسا الا وسعها » [2] .

---

(١) الفكر الاسلامي / محمد محمد أسماعيل عبده .

(٢) آخر آية من سورة البقرة .

وأما اذا تقاعدت الامة الاسلامية عن تحقيق مطالب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر بحجة أن المسؤول عن ذلك هم العلماء أو الخطباء أو غير ذلك ، فقد أصبحت مأثومة برمتها ، سيّما وأنها لاتملك دليلاً على هذا التبرير الفارغ ، وأني لها بالدليل الذي يؤكد لها : أن العلماء أو الخطباء أو غير ذلك هم المسؤولون ــ فقط ــ عن هذه المهمة الاصلاحية الكبرى ، بل ما ذنب هذه الفئة المخلصة لكي تتحمل كل مشقة في سبيل تحقيق شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر اذا كانت غير مكلفة تكليفا شرعيا في كتاب أو سنة ؟ . والادلة الشرعية التي وردت في الكتاب والسنة تدل دلالة واضحة على أن هذه المسؤولية ــ مسؤولية الامر بالمعروف ــ مكلفة بها كل الجماعات التي تحمل شارة التبعية لرسالة محمد (ص) ، فالقرآن الكريم يعلن : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ... » (١) .

وقوله تعالى «كنتم خيرَ أمةٍ أخرجت للناسُ تأمرونَ بالمعروف، وتنهونَ عن المنكر ... » (٢) .

وهذا يدل على أن صفة الامر بالمعروف صفة ملازمة لمعسكر الايمان ،وكذلك إنكار المنكر ، رجاله ونسائه ــ لاتنفك عنهم بأي حال من الاحوال .

كما أن السنة الشريفة تدل على هذه الحقيقة لقول الرسول (ص): « ما زال الناسُ بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

---

(١) سورة التوبة آية / ٧١ يلاحظ تفسير هذه الآية في (تفسير التبيان للطوسي) ليتضح أطار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

(٢) سورة آل عمران / آية / ١١٠ .

وقد ورد كذلك عن أمير المؤمنين (ع) قوله : « لاتتركوا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيولى عليكم شراركم ثم تدعون ، فلا يستجاب لكم ... » .

وهذا النداء موجه لجميع أفراد الامة دون استثناء أو تخصيص، ولم يول التشريع الاسلامي هذه العملية ـ عملية الامر بالمعروف ـ هذه العناية الا لانه سياج متين وأطار حديدي يحفظ المجتمع من كل أدران الجاهلية التي ترفض منهج الله سبحانه وتقصيه عن واقع الانسان فهو مصلحة لطبقات الامة كافة ، وكيف لايكون كذلك ، وهو الذي : تقام به الفرائض ، وتأمن المذاهب ، وتحل المكاسب ، وتمنع المظالم ، وتعمر الارض وينتصف للمظلوم من الظالم ، ولا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، وتعاونوا على البر ، فاذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض ، ولم يكن لهم ناصر في الارض ولا في السماء (١) .

واذا كانت هذه المهام الكبار من منع للمظالم واعمار الارض والعدالة بين الناس والضرب على أيدي الظلمة من التلاعب بمقدرات الامة وإقامة للفرائض واحلالا للمكاسب .

اذا كان الامر بالمعروف يتحمل هذه المسؤولية الجسيمة في إنقاذ المجتمع واصلاح أوده ، فقد تجلت الغاية التي من أجلها أعلنت فاطمة الزهراء (ع) كونه ، مصلحة للعامة ، فهو مصلحة للعامة ، لعامة أبناء الامة ، به تحفظ حقوقها وتدوم كرامتها ويقوم أعوجاجها ، فهو الى جانب كونه تشريعا عباديا كلف الله به الانسان المسلم الا أن ما يدره من أرباح وما يحقق من نتائج إيجابية وما يوفره من مصالح ،

(١) منهاج الصالحين / الامام الحكيم .

كل ذلك تجنيه الامة الاسلامية برمتها ، ولهذا الهدف أصبح ـ على حد تعبير الزهراء (ع) مصلحةً للعامة يتفيئون ظلاله ويرتفعون على أساسه الى مستوى الكرامة والعزة ـ مهما تراكمت المحن وادلهمّت الخطوب ـ .

وبر الوالدين وقاية من السخط

وهنا تلتفت الزهراء (ع) الى الخلية الاولى التي ينشأ منها المجتمع الانساني ، هذه الخلية : هي الاسرة ، ولا تتناول الزهراء الاسرةَ برمتها ، وإنما تتناول العمود الفقري والاساس الذي تستند عليه في بناء كيانها ، فتناولت البرّ بالوالدين : الاب والام ، لما لهما من فاعلية ضخمة في بناء الكيان الاجتماعي ، والوالدان ـ وان اختلفا في عملهما في أطار الاسرة ـ الاّ أن هناك تمازجا عضويا بين عملهما البناء، فالوالد يتناول البيت من الخارج فيكدح ويثابر لكسب الرزق وادخال السرور على أسرته ، والام تتناول البيت من الداخل بحكم تركيبها الفسيولوجي والنفسي والروحي الذي وفرتها مسؤولية تناول البيت من داخله ، فهي تنجب الاطفال وتتولى رعايتهم وتسهر لمصلحتهم وتدبير البيت من الداخل لتكمل عمل الوالد الخارجي .

وحين يكون عمل الوالدين هذا شأنه على مر الاجيال والعصور ، فلابد للاسلام ـ وهو منهج الله الخالد ـ أن يقيِّم عملهما هذا ، فاذا به يرفعهما الى أعلى الآفاق : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا : اما يبلغنّ عندكَ الكبرَ أحدُهما أو كلاهما ،

فلا تقل لهما أفٍّ ، ولا تنهرْهما وقل لهما قولا كريما ... »[1] .

فيشترط برّهما ورعايتهما وعدم إيذائهما بأدنى الامور حتى بالاشارة أو التضجّر .

وحين يقرر الاسلام وجوب رعاية الوالدين ، فقد أصبح عقوقهما أمرا محظورا يستلزم غضب الله وسخطه ، ولهذا السر عينه راحت الصديقة الزهراء (ع) ترسم هذه الحقيقة حين أعلنت أن بر الوالدين يتحقق على يديه الابتعاد عن مغبة سخط الله وإغضابه الذي يجر الى الدمار والبوار .

وصلة الارحام منسأة فى العمر ومنماة فى العدد

وهنا تتسع الدائرة لتكون اكثر شمولاً وأوسع مدارا حيث تلتفت الزهراء (ع) الى أرحام الانسان وأقربائه لتقرر مفهوما إجتماعيا رائعا يقضي بالتكاتف والتكامل الاجتماعي والتوادّ ، ليكون عونا على تحقيق المجتمع المتراصّ الموحدّ الذي يصبو الاسلام الى تحقيقه ، وهل في الارض من انسان لاينتمي الى قوم أو عشيرة ؟ فاذا توثقت عرى الصلة بين الارحام تحققت المعجزة الاجتماعية الكبرى في الواقع الانساني ، لان الناس كلهم في واقع الامر أرحام ينتهون الى أصل واحد وأب واحد ، والزهراء (ع) حين تعلن هذا المفهوم الاسلامي فانما تستقيه من منبعه الاصيل : كتاب الله العزيز ، حيث يعلن هذا المفهوم الشامخ بقوله : « واتقوا اللهَ الذي تساءَلون به والارحام

(١) سورة الاسراء / آية ٢٣ .

إن الله كان عليكم رقيبا ... » [1] .

ولكن الزهراء (ع) لاتريد أن تستعرض مفهوم صلة الارحام ـ فحسب ـ وإنما شاءت ـ من وراء ذلك ـ تبيان فلسفة تشريعه ، فأعلنت أنه « منسأة في العمر ، ومنساة في العدد » .

حيث رسمت واقعا غيبيا واجتماعيا في آن واحد ، فأوضحت أن المكافأة التي يصيبها الانسان المسلم الذي يرفع شعار صلة الارحام في حياته ، هي زيادة له في عمره كجائزة له من خالق هذا الوجود سبحانه.

وهذا ما قرره الامام الصادق (ع) بقوله : « ما نعلم شيئا يزيد في العمر الا صلة الرحم » [2] .

ثم تعلن الزهراء (ع) المنقبة الثانية التي تتحقق في ظلال صلة الارحام فتقول : « ومنماةً في العدد » .

ولعل الزيادة في العدد هنا يتأكد من طريقين : إما عن طريق غيبي يتم بأفاضة البركة والزيادة في النسل من الله سبحانه ، او عن طريق التكاتف وجمع الكلمة ورصّ الصفوف الذي يتم عند الإلتزام بمبدأ صلة الارحام الشامخ .

والقصاص حقناً للدماء

وهنا ترسم الزهراء (ع) حقيقةً كبرى من حقائق التشريع الاسلامي الرصين ، تلك : هي مفهوم القصاص ، فالرسالة الاسلامية وان كانت في أساسها دينا يربى النفس ويصقل الوجدان ويقوم السلوك

---

(١) سورة النساء / آية / ١ .

(٢) الاخلاق / عبد الله شبر .

حتى يحمل إنسانه على تطبيق متطلبات الرسالة بصورة تلقائية ــ الا أنه لايقف عند هذا الحد ، لانه يعلم أن المجتمع الانساني مهما ارتفع الى مستوى المثالية والنبل ، الاّ أنه لايخلو من طفيليات يهمّها التلاعب بمقدرات الرسالة وأتباعها ، ولذا وضع الى جانب التربية التي يسبغها على ابنائه رصيدا تشريعيا يمثّل عملية علاجية لمن يحاول التلاعب بمقدرات الامة ومبدئها القويم ، وفي طليعة هذا الرصيد التشريعي رسم الاسلام بنود القصاص التي تقضي بالمعاقبة بالمثل ، فالانف بالانف، والاذن بالاذن ، والنفس بالنفس ، وهلمّ جرا ، وهذا التشريع الاسلامي الرصين يكسب المجتمع مناعة فعلية على مواجهة التلاعب والاعتداء ، سواءً أوقع ذلك خطأً أم عمدا .

وحين يضع الاسلام هذه القاعدة في دستوره ، فانما وصفها حقنا لدماء أبنائه وحفظا للتوازن والاستقرار في مجتمعه ، لان الانسان اذا وجد نظاما يكفل له صدّ الاعتداء عليه ويأخذ بثأره ، فانه يلجأ اليه ــ دوماً ــ دون اللجوء لمفهوم الثأر الجاهلي أو الاخلال بالامن الذي يؤدي ــ غالبا ــ الى فقدان الهدوء والطمأنينة وتمزيق الوحدة الاجتماعية وقيام البلبلة والصراع الدائم .

وهكذا أفصحت الزهراء (ع) فلسفة ، تشريع حكم القصاص ، فعبّرت عنه بأنه حقنٌ للدماء ، فهو ــ لعمر الحق ــ الوسيلة الوحيدة التي تحقن الدماء على أساسها وتصان حرمتها ، أما اذا تُرك الحبل على الغارب للمعتدين دون الاقتصاص منهم فقد وقعت الكارثة ، وقد فسرّ هذا السرّ كتاب الله العزيز بقوله : « ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب » [1] .

---

(١) سورة البقرة / آية / ١٧٩ .

والوفاء بالنذر تعريضا للمغفرة

وهنا بادرة" لطيفة تواجهنا بها الزهراء (ع) ، وهي تقطع أشواطا بعيدةً في حديثها عن معالم الرسالة الاسلامية المقدسّة ، فالنذر في حقيقته لم يكن فرضا كلفت الرسالة الاسلامية اتباعها بأتيانه كبقية الفرائض [1] ، وإنما هو عمل يباح للمرء تعاطيه او ممارسته ، والنذرُ في واقعه لايباح الاّ اذا كان لله سبحانه ، وسوى ذلك فانه محظور على المرء ارتياده .

وحين يمارس الانسان المسلم هذا العمل ، فانما يعني أنه قد قيّد نفسه بنفسه بأداء فريضة لم يفرضها الله سبحانه ، لانه ــ هو نفسه ــ قد أعلن طواعية هذا اللون من السلوك دون تكليف من السماء .

وحين يكون النذر بمثابة سلوك يكلف المرء به نفسه تقربا الى الله ، فان الوفاء به كوعد يقطعه الانسان على نفسه يحقق للانسان ثواب الله ورضوانه ، وهذه الحقيقة عينها قد حملت الزهراء (ع) على إعلان فلسفة الوفاء بالنذر وأهدافه بقولها : « انه تعريض للمغفرة والرضوان » .

وتوفية المكاييل والموازين تغييرا للبخسة

وهنا التفاتة حكيمة من الزهراء (ع) حين تنتقل لمفهوم اقتصادي كبير لايستغني عنه مجتمع" من المجتمعات ــ اطلاقا ــ وهو يتعلق

(١) الكشاف فى تفسير سورة الدهر .

بالبيع والشراء والمكيال والميزان ، لان المعاملات الاقتصادية في المجتمعات الانسانية لاتخرج عن هذه الاطارات الثابتة .

وحين تملك المكاييل والموازين اليد الطولى في توجيه المعاملات الاقتصادية المهمة في المجتمعات الانسانية ، فقد اصبح لزاما عليها أن تهتم بموازينها حفظا لإستقامة البيع والشراء ، وابتعادا عن التلاعب وابتزاز الاموال والعبث بالمصالح الخاصة أو العامة . والاسلام الحنيف بوصفه التشريع الإلهي القويم الذي فهرس الحياة الانسانية برمتها ، قد التفت الى هذه الواقعة وأعطى رأيه الحاسم فيها ، فأعلن على لسان دستوره الخالد تهديداته وإنذاراته للمتلاعبين بالاوزان والمكاييل بقوله: « ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون [1] » .

كما أصدر تعليماته بضرورة الالتزام بالعدل بالكيل والوزن بقوله تعالى « وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » [2] .

وحين يملك مفهوم توفية المكاييل والموازين هذه القدرة الايجابية على حفظ التوازن والعدل في المجتمع ورفع الحيف والتلاعب بالاموال عن الناس ، فقد أصابت الزهراء (ع) كبد الحقيقة بهذا الاعلان الرصين الذي أوضحت فيه فلسفة تشريع توفية المكاييل والموازين الهادفة الى تخليص المجتمع من المظالم وابتزاز الاموال .

---

(١) سورة المطففين آية / ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الرحمن آية / ٩ .

والنهي عن شرب الخمر تنزيها عن الرجس

واحتساء الخمر عادة" جاهلية ، أعلن منهج الله سبحانه وتعالى على لسان أنبيائه وكتبه منعَ تعاطيها بأي شكل من الاشكال ، والاسلام ــ وهو الحلقة الخاتمة من حلقات الرسالة الإلهيــة المباركة للنوع الانساني ــ قد أعلن هذه الحقيقة ، فحمل دستوره الخالد بندا تشريعيا ينص على أعتبار شرب الخمر أمرا محظورا على النوع الانساني .

وحين يعلن الاسلام رأيه الحاسم في الخمر ، فانما استهدف بذلك أن يحجب مجتمعه المبارك عن كثير من ألوان السلوك الشاذ الذي يتمخض عن احتساء الخمر : من ذهاب للعقل والشعور ، وانهيــار للأعصاب ، وذهاب للمال ، ووقوع للعداوة والبغضاء بين جماعــة المحتسين للخمر .

والاسلام ــ وهو منهج الله سبحانه ــ ليس في منطقه أمر محظور سوى ما يجلب الضرر للأنسان ، فردا كان أم جماعة وسواءً أكان الضرر عقليا أم جسميا أم اجتماعيا ، ولما كان الخمر يجرّ الى كثير من المشكلات كالعداوة بين الناس أو اذهاب للمال دون مبرر أو غير ذلك ، فقد حكم الاسلام بتحريمه تحريما قاطعا على لسان كتابه المجيد : « ... إنما الخمرُ والميسرُ والانصابُ والازلامُ رجسٌ من عملَ الشيطان فأجتنبوه لعلكم تُفلحون . إنما يُريدُ الشيطان أن يوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاءَ في الخمر والميسر ، ويصدكم عن الصلاة ، فهل أنتم مُنتهون » [1] .

---

(١) سورة المائدة ، آية / ٩٠ ــ ٩١ .

فتحريمه كان بسبب ما يجرّه من قبائح الاعمال التي تمثل سلوكا شيطانيا لايقرّه منطق منهج الله تعالى .

والزهراء (ع) ترسم بهذه العبارة الرائعة فلسفة تحريم الخمر حين تقول : ان تحريمه بمثابة تنزيه وتخليص للانسان عن كل عواقبه الوخيمة التي تمثل نشاطا جاهليا وعملا شيطانيا نجسا لا يرتضيه منطق الاسلام الحنيف الذي يتماشى مع الفطرة ، ويوائم المصلحة .

واجتناب القذف حجابا عن اللعنة وترك السرقة ايجابا للعفة

مهما ارتفعت المجتمعات البشرية الى آفاق المثالية ، فانها لايمكن أن تخلو من نفرٍ لم يبلغوا درجة الاستقامة بعد ، وقد يبدو داء الاعوجاج في فكرهم أو في سلوكهم أو في عواطفهم فيصبحوا على هذا الاساس عضوا مغايرا في طابعه للطابع الاصيل في المجتمع ، وقد ينعكس هذا الاعوجاج في كثير من ألوان نشاطهم في المجتمع وبأنماطٍ مختلفة وفي مجالات متباينة .

والمجتمع الاسلامي ــ وان كان هو المجتمع الوحيد الذي يقف تحت راية خالق الوجود سبحانه ــ الا أنه ليس بدعا من الامر لانه لايخلو من نفرٍ لم تنضج العقيدة في نفوسهم بعد ، ولم تصقل عقلياتهم ونفسياتهم بالمفاهيم الاسلامية المقدسة فيندفعوا بعد ذلك ليزاولوا نشاطا مخالفا لما يرسمه الاسلام الحنيف من تعليمات واحكام .

ومن هذه النشاطات التي شدد الاسلام على محاربتها قذف المحصنات والسرقة ، لان هذين النشاطين ــ كليهما ــ اعتداء" على الآخرين ، فالاول اعتداء على عرض ، والآخر اعتداء" على الملكية

ـ خاصة كانت أم عامة ـ .

وقذف المحصنات هو تهمة يثيرها نفر من المغرضين حول بعض المسلمات المحصنات إحداثا للبلبلة وايقاعا للفتنة . وقد منع الاسلام هذه المفسدة وشدّد على مرتكبيها وجعل اللعنة نصيبهم .

وعلى هذا الاساس ، فان التخلص من غضب الله ولعنته يتحقق باجتناب القذف ، وهذه الحقيقة قد أشارت لها الزهراء (ع) في هذا المقطع القصير من خطبتها بقولها : «واجتناب القذف حجابا عن اللعنة» .

ولعل الزهراء أرادت بذلك الاشارة الى قول الله تعالى بهذا الشأن الذي ورد في كتابه العزيز : « إن الذينَ يرمون المحصنات الغافلات المؤمناتِ لعنوا في الدنيا والآخرةِ ، ولهم عذاب عظيم ... (١) »

فباجتناب القذف ورمي المحصنات تحجب اللعنة وينجلي سخط الله الله سبحانه .

والسرقة عملية لأبتزاز أموال الغير بصورة سرية أو بطريقة القوة، وقد حكم الاسلامُ الحنيف بأبطال هذه الجريمة الاجتماعية ومحو شبحها من قاموس الحياة الانسانية ، وشدّد على مرتكبيها بقوله : « والسارق والسارقة فأقطعوا أيديهما ، جزاءً بما كسبا ، نكالاً من الله ، والله عزيزٌ حكيم ... » (٢) .

وحين يعلن الاسلام هذا التشريع الصارم بحق للسارق بصفته معتديا على أموال الناس بغير حق ، فانما أراد أنه يجعل من مجتمعه مثلاً رائعا للعفة والطهارة التي ينبغي أن تطبع حياة المجتمع الاسلامي المبارك .

---

(١) سورة النور ، آية / ٢٣ .

(٢) سورة المائدة ، آية / ٣٨ .

وعلى هذا الاساس الرصين أعلنت الزهراء (ع) فلسفة منع السرقة وعدمَ مزاولتهـا كسلوك شاذ ، بكونها إيجابا للعفة والنبل والطهارة والخلق الاسلامي الكريم . وهذا ما تجلى بقولها : « وترك السرقة إيجابا للعفة » ـ .

* * *

نهاية المطاف

أكرم يوسف

وبعد أن عشنا قليلا في ظلال جزءٍ صغير من خطبة الزهراء (ع) الرائعة ، يطيب لنا أن نثبت هنا الخطبة كاملة ، إتماما للفائدة وإبرازا لعظمة الزهراء ، فقد خطبت في الجموع الاسلامية المحتشدة في مسجد أبيها محمد (ص) قائله : (●)

(●) في شرح النهج لابن أبي الحديد : ج ١٦ ص ٢١١ طبع دار إحياء الكتب العربية ــ سند الخطبة هكذا : « قال أبو بكر ــ أي احمد بن عبد العزيز الجوهري عن كتاب السقيفة ــ : حدثني محمد بن زكريا ، قال :حدثني جعفر بن محمد بن عمارة الكندي ، قال : حدثني أبي عن الحسين بن صالح بن حي . قال : حدثني رجلان من بني هاشم عن زينب بنت علي بن أبي طالب عليه السلام ...

قال : أي الجوهري ــ وقال جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه ...

قال أبو بكر : وحدثني عثمان بن عمران العجيفي عن نائل بن نجيح بن عمير بن شمر عن جابر الجعفي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام ...

قال أبو بكر : وحدثني أحمد بن محمد بن يزيد عن عبد الله بن محمد بن سليمان عن أبيه عن عبد الله بن حسن بن الحسن ...

قالوا ــ جميعا ــ : لما بلغ فاطمة عليها السلام إجماع أبي بكر على منعها (فدك) لاثت خمارها ، وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها ، تطأ ذيولها ؛ ما تخرم مشيتها مشية رسول الله (ص) حتى دخلت على

« الحمدُ لله على ما أنعمَ ، وله الشكرُ على ما ألهم ، والثناءُ بما قدَّم : من عُموم نعمٍ ابتداها ، وسبُوغ آلاءٍ أسداها [1] ، وتمام مننٍ أولاها ؛ جمَّ عن الإحصاء عددها ؛ [2] ونأى عن الجزاء أمدُها ؛ وتفاوتَ عن الادراك أبدُها ، واستدعى الشكرَ بافضالها ، واستحمد الى الخلائق بأجزالها ، وثنى بالندب الى أمثالها .

وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لاشريكَ له ، كلمةً جعلَ الإخلاصَ تأويلها ، وضمَّن القلوبَ موصولها ؛ وأنارَ في التفكر معقولها ، الممتنعُ عن الابصار رؤيتُه ، ومن الالسن صفته ، ومن الاوهام كيفيته ، ابتدعَ الاشياءَ لا من شيءٍ كان قبلَها ، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها [3] ، كونها بقدرته ، وذرأها بمشيئته ، من غير حاجةٍ منه الى تكوينها ، ولا فائدةٍ له في تصويرها ، الا تثبيتا لحكمته ، وتنبيها على طاعته ، وإظهارا لقدرته ، وتعبدا لبريته ، وإعزازاً لدعوته . ثم جعلَ الثوابَ على طاعته ، ووضع العقابَ على معصيته ذيادة لعبادته

أبي بكر ، وقدحشد الناس من المهاجرين والانصار . فضرب بينها وبينهم ريطة بيضاء ؛ وقيل قبطية .

ثم أنت أنةً أجهش لها القوم بالبكاء . ثم امهلت ــ طويلا ــ حتى سكنوا من فورتهم .

ثم قالت : ابتدي بحمد من هو أولى بالحمد والطول والمجد ... الحمد لله على ما أنعم وله الشكر بما ألهم ــ وذكر خطبة طويلة جيدة قالت في آخرها . فأتقوا الله حق تقاته ... » .

(١) السيوغ : الكمال (٢) جمَّ : كثر .

(٣) الاحتذاء : الاقتداء

عن نقمته ، وحياشةً لهم الي جنته [٤] .

واشهد أن أبي محمدا (صلى الله عليه وآله) عبدهُ ورسولُه ، إختارهُ وانتجبَه قبلَ أن أرسله ، وسمّاه قبلَ أن اجتباه ، واصطفاه قبلَ ان ابتعثه إذ الخلائقُ بالغيب مكنونة ، وبستر الاهاويل مصونة ، وبنهاية القدم مقرونة ، علما من الله بمآيل الامور ، وإحاطةً بحوادث الدهور ، ومعرفةً بمواقع المقدور .

ابتعثه الله إتماما لامره ، وعزيمةً على إمضاء حكمه ، وانفاذا لمقادير حتمه ، فرأى (ص) الامم فرقا في أديانها ، عكّفا على نيرانها ، عابدةً لأوثانها ، منكرةً لله مع عرفانها ، فأنار الله ــ تعالى ــ بأبي محمد ظلمها ، وكشف عن القلوب بهمها [٥] ، وجلى عن الابصار غممها [٦] ، وقام في الناس بالهداية ، وأنقذهم من الغواية ، وبصّرهم من العماية ، وهداهم الى الدين القويم ، ودعاهم الى الصراط المستقيم .

ثم قبضه الله اليه قبضة رأفةٍ واختيار ، ورغبةٍ وإيثار ، فمحمد (ص) عن تعب هذه الدنيا في راحة ، قد حفّ بالملائكة الابرار ورضوان الربّ الغفّار ومجاورة الملك الجبّار ، صلى الله على أبي : نبيه وأمينه على وحيه ، وخيرته من الخلق ورضيه ، والسلام عليه ورحمة الله وبركاته .

وانتم ــ عباد الله ــ [٧] نصب أمره ونهيه ، وحملةُ دينه ووحيه ، وأمناءُ الله على أنفسكم ، وبلغاؤه الى الامم ، وبقية استخلفها عليكم ،

---

(٤) الذيادة : الصرف والحياشة : الجمع والسوق .

(٥) البهم ــ بالضم ــ جمع بهمة المبهمات والمعضلات من الامور .

(٦) الغمم ــ بالضم ــ جمع غمة : المشكل الملتبس .

(٧) خطاب الى عموم الحاضرين في المسجد .

كتاب الله الناطق ، والقرآن الصادق ، والنور الساطع ، والضياء اللامع ، بينة" بصائره ، منكشفة" سرائره ، متجلية" ظواهره ، مغتبطة أشياعه ، قائد" الى الرضوان إتباعه ، مؤدٍ الى النجاة استماعه ، فيه تبيان حجج الله المنورة وعزائمه المفسرة ، ومحارمه المحذرة ، وبيناته الجالية ، وجمله الشافية ، وبراهينه الكافية ، وفضائله المندوبة ، ورخصه الموهوبة ، وشرائعه المكتوبة .

فجعل الله الايمان ، تطهيرا لكم من الشرك ، والصلاةَ تنزيها لكم عن الكبر ، والزكاةَ تزكية للنفس ونماءً في الرزق ، والصيام تثبيتا للاخلاص ، والحج تشييدا للدين ، والعدلَ تنسيقا للقلوب ، وطاعتنا نظاما للملّة ، وإمامتنا أمانا من الفرقة ، والجهاد عزا للاسلام وذلا لأهل الكفر والنفاق ، والصبرَ معونةً على استيجاب الاجر ، والامرَ بالمعروف والنهيَ عن المنكر مصلحةً للعامة ، وبرَّ الوالدين وقايةً من السخط ، وصلةَ الارحام منسأةً (٨) في العمر ومنماةً في العدد ، والقصاصَ حقنا للدماء ، والوفاءَ بالنذر تعريضا للمغفرة ، وتوفيةَ المكاييل والموازين تغييرا للبخسة ، والنهي عن الخمر تنزيها عن الرجس ، واجتنابَ القذف حجاباً عن اللعنة ، وترك السرقة إيجابا للعفة ، وحرَّم اللهُ الشركَ إخلاصا له بالربوبية (فأتقوا الله حقَّ تُقاته ولا تموتنَّ الاَّ واانتم مسلمون ، وأطيعوا اللهَ فيما أمركم به ونهاكم عنه ، فانما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ) .

أيها الناس ، إعلموا أني فاطمةُ وأبي محمد ، أقول عودا وبدءً ، ولا أقول ما أقول غلطا ، ولا أفعل ما أفعل شططا (٩) ، « لقد جاءَكم رسول" من انفسكم ، عزيز" عليه ما عَنتمْ ، حريصَ عليكم ، بالمؤمنين

(٨) منسأة للعمر : أي : مؤخرة له .

(٩) الشطط ــ بفتحتين ــ : مجاوزة القدر .

رؤوفٌ رحيمٌ » فان تعزوه وتعرفوه ، تجدوه أبي دون نسائكم ، وأخا ابن عمي دون رجالكم ، ولنعمَ المعزىَّ اليه ، فبلّغ الرسالة ، صادعا بالنـذارة ، [١٠] مائلاً عن مدرجـة المشركين [١١] ، ضاربا ثبجهم ، [١٢] آخذا بكظمهم ، [١٣] داعيا الى سبيل ربّه بالحكمـة والموعظة الحسنة ، يكسرُّ الاصنامَ وينكت الهام [١٤] حتى انهزم الجمعُ وولّوا الدبر ، وحتى تفرّى الليل عن صبحه [١٥] ، وأسفر الحقُّ عن محضه ، ونطق زعيم الدين ، وخرست شقاشقُ الشياطين [١٦] وطاحَ وشيظ النفاق [١٧] ، وانحلت عقدةُ الكفر والشقاق ، وفُهتم بكلمة الاخلاص في نفرٍ من البيض الخماص [١٨] وكنتم على شفى حفرةٍ من النار ، [١٩] مُذقةَ الشارب ، [٢٠] ونُهزة الطامع ، [٢١] وقُبسةَ

---

(١٠) الصدع : هو الأظهار ، والنذارة ــ بالكسر ــ : هو الاعلام على وجه التخويف (١١) المدرجة : هي المذهب والمسلك .

(١٢) الثبج ــ بفتحتين ــ : وسط الشيء ومعظمه .

(١٣) الكظم ــ بالتحريك ــ : الاجتراع ومخرج النفس من الحلق .

(١٤) النكت ــ الضرب الشديد بأداة بحيث يؤثر في المضروب .

(١٥) أي انشق حين ظهر الصباح .

(١٦) جمع شقشقة ــ بالكسر ــ ، وهي شيء كالرية يخرجها البعير من فمه اذا اهتاج .

(١٧) طاح : هلك . والوشيظ : السفلة واراذل الناس .

(١٨) المقصود من البيض الخماص : هم أهل البيت عليهم السلام .

(١٩) شفى ــ بالقصر ــ من كل شيء كرقه وطرقه .

(٢٠) المذقة : هو اللبن الممزوج بالماء كناية عن سهولة شربه .

(٢١) النهزة ــ بالضم ــ : الفرصة .

العجلان ، (٢٢) وموطىء الاقدام ، تشربون الطرق ، (٢٣) وتقتاتون القد ، (٢٤) أذلة خاسئين ، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم ، فأنقذكم الله بأبي محمد بعد اللتيا والتي ، وبعد أن مني ببهم الرجال ، (٢٥) وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) أو نجم قرن للشياطين ، (٢٦) أو فغرت فاغرة (٢٧) من المشركين ، قذف أخاه في لهواتها (٢٨) ، فلا ينكفيء حتى يطأ صماخها بأخمصه (٢٩) ، ويخمد لهبها بسيفه ، مكدودا في ذات الله ، مجتهدا في أمر الله ، قريبا من رسول الله ، سيدا في أولياء الله ، مشمرا ناصحا مجدا كادحا ، وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون ، تتربصون بنا الدوائر ، (٣٠) وتتوكفون

---

(٢٢) القبسة ـ بالضم ـ شعلة من نار تقتبس من معظمها .

(٢٣) الطرق ـ بالسكون ـ : المستنقع أو المخاضة التي تبول فيها الابل (٢٤) القد ـ بالفتح والتشديد ـ : جلد السخلة . وبالكسر سير من جلدٍ عليها مدبوغ .

(٢٥) البهم ـ بالضم فالفتح ـ : جمع بهمة ، وهم الشجعان .

(٢٦) نجم : طلع . وقرن الشيء ـ بالفتح ـ : أوله المقصود اتباع الشيطان . (٢٧) فغرفاه : أي فتحه . والفاخرة من المشركين أي الطائفة منهم . (٢٨) اللهوات ـ بالتحريك ـ : جمع لهات وهي لحمة في أقصى شفة الفم . (٢٩) الصماخ : خرق الاذن الباطن من حيث الرأس ، وأخمص القدم : مالا يصيب الارض من باطنها .

(٣٠) التربص : الانتظار ، والدوائر : جمع دائرة ، وهي صروف الزمان

الاخبار [٣١] ، وتنكصون عند النزال [٣٢] ، وتفرون من القتال .

فلما أختار الله لنبيّه دار أنبيائه ، ومأوى أصفيائه ، ظهرت فيكم حسيكة النفاق ، [٣٣] وسمل جلباب الدين ، [٣٤] ونطق كاظمُ الغاوين ، [٣٥] ونبغ خامل الآفلين ، [٣٦] وهدرَ فنيق المبطلين ، [٣٧] فخطر في عرصاتكم ، [٣٨] وأطلع الشيطانُ رأسه من مغرزه [٣٩] هاتفا بكم ، فألفاكم لدعوته مستجيبين ، وللغرة فيه ملاحظين [٤٠] .

ثم استنهضكم فوجدكم خفافا ، وأحمشكم فألفاكم غضابا [٤١] فوسمتم غير إبلكم [٤٢] ، وأوردتم غير شربكم . هذا والعهد قريب ، والكلم رحيب ، [٤٣] والجرح لما يندمل ، والرسول لما يُقبر ؛ إبتدادا زعمتم خوفَ الفتنة (ألا في الفتنة سقطوا وان جهنّم لمحيطة بالكافرين) .

---

(٣١) وتتوكفون ، أي : تتوقعون المصائب النازلة بنا .

(٣٢) النكص : الاحجام والتأخر .

(٣٣) في بعض النسخ (حسكة) ، وهي النبتة الشائكة ، يكنى بذلك عن الحقد (٣٤) سمل : خلق ، والجلباب : الازار .

(٣٥) الكاظم : الساكت (٣٦) نبغ : ظهر ، والخامل : المهمل الذكر والساقط (٣٧) الهدير : ترديد البعير صوته في حنجرته ، والفنيق : الفحل الذي لايركب ولا يحمل عليه .

(٣٨) خطر البعير بذنبه : اذا رفعه مرة بعد أخرى ، يضرب به فخذيه (٣٩) مغرزه : أي المحل الذي يختفي فيه ، تشبها له بالقنفذ .

(٤٠) الغرة ــ بالكسر والتشديد ــ : الغفلة .

(٤١) أحمشكم : أي أغضبكم (٤٢) الوسم : الكيّ .

(٤٣) الكلم : الجرح ، والرحيب : الواسع .

فهيهات منكم وكيف بكم ، وأنّى تؤفكون . وهذا كتاب الله بين أظهركم : أموره ظاهرة ، وأحكامه باهرة ، وزواجره لائحة ، وأوامره واضحة ، فقد خلفتموه وراءَ ظهوركم ، أرغبةً عنه تدبرون ، أم بغيره تحكمون (بئس للظالمين بدلاً ، ومن يبتغ غيرَ الاسلام دينا ، فلن يقبل منه ، وهو في الآخرة من الخاسرين) .

ثم لم تلبثوا الا ريثما تسكن نفرتها ، (٤٤) ويسلس قيادها ، ثم أخذتم تورون وقدتها ، وتهيجون من جمرتها ، وتستجيبونَ لهتاف الشيطان الغويّ وإطفاء نور الدين الجلّى ، وإهمال سنن النبي الصفي ، تسرون حسوا في ارتغاء (٤٥) ، وتمشون لاهله في السراء والضراء ، ونصبر منكم على مثل حزّ المدى ووخز السنان في الحشى (٤٦) .

وأنتم الآن تزعمون : أن لا إرث لي من أبي : (أفحكم الجاهلية تبغون ، ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

أفلا تعلمون ... ــ بلى قد تجلى لكم كالشمس الضاحية ــ : أني ابنته .

ويهاً أيها المسلمون ، أأغلب على تراث أبي ؟

يابن ابي قحافة ؟ ! !

أفي كتاب الله أن ترث أباك ، ولا أرث ابي ؟

لقد جئت شيئا فريّا افعلى عمد تركتم كتاب الله ، ونبذتموه

---

(٤٥) الحسو : هو الشرب شيئا فشيئا . والارتغاء : شرب الرغوة ، وهو اللبن المشوب بالماء .

(٤٦) الحز : القطع ، والمدى ــ بالضم ــ جمع مدية ، وهي السكين ، والوخز : القطع .

وراء ظهوركم ، اذ يقول : « وورث سليمان داود » ، وقال فيما اقتص من خبر يحيى بن زكريا إذ يقول : « ربِّ هب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله ربِّ رضياً » وقال : « وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » ، وقال : « يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الانثيين » ، وقال : « ان ترك خيرا الوصية للوالدين والاقربين بالمعروف حقا على المتقين » .

وزعمتم أن لاحظوة لي (٤٧) ولا ارث من أبي ولا رحم بيننا ، أفخصكم الله بآية أخرج منها أبي ؟

أم تقولون : أهل ملتين لايتوارثان ؟

أو لستُ أنا وابي من أهل ملة واحدة ؟

أم انتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي ؟

فدونكها مخطومة مرحولة ، (٤٨) تلقاكَ يوم حشرك ، فنعمَ الحكم الله ، والزعيمُ محمد ، والموعدُ القيامة ، وعند الساعة يخسر المبطلون ولا ينفعكم اذ تندمون : « ولكل نبأ مستقر" ، وسوف تعلمون من يأتيه عذاب" يخزيه ، ويحلّ عليه عذاب" مقيم » .

يا معشرَ الفتية وأعضادَ الملة ، وحضنةَ الاسلام ، (٤٩) ما هذه الغميزةُ في حقي (٥٠) والسنةُ عن ظلامتي . أما كان رسول الله أبي يقول : « المرءُ يحفظ في ولده » سرعانَ ما أحدثتم ، وعجلانَ ذا أهالة ، (٥١)

---

(٤٧) الحظوة : المكانة (٤٨) مخطومة من الخطام بالكسر — : المقود وهو ما يدخل في أنف البعير ليقاد به ، ومرحولة — من الرحل — وهو للناقة كالسرج للفرس . كناية عن فدك المغصوبة .

(٤٩) الخطاب لعموم الانصار (٥٠) الغميزة — بالفتح — : ضعفة في العمل (٥١) السنة — بالكسر — : النوم الخفيف .

ولكم طاقة بما أحاول ، وقوة على ما أطلب وأزاول ، أتقولون : مات محمد ، فخطب جليل ، استوسع وهيه ، (٥٢) واستنهر فتقه ؛ (٥٣) وانفتق رتقه ، (٥٤) وأظلمت الارض لغيبته ، وكسفت الشمس والقمر واكتئبت النجوم لمصيبته ، واكدت الآمال ، (٥٥) وخشعت الجبال ، وأضيع الحريم ، وأديلت الحرمة عند مماته ، (٥٦) فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى ، التي لامثلها نازلة ولا بائقة عاجلة (٥٧) ، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في مساكم ومصبحكم هتافا وصراخا وتلاوة وإلحانا ، ولقبله ما حلت بأنبياء الله ورسوله ، حكم فصل ؛ وقضاء حتم : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفأن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه ، فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين » .

إيهاً ، بني قيلة ، (٥٨) أأهظم تراث أبي ، وانتم بمرأى ومسمع ومنتدى ومجمع ، تلبسكم الدعوة ، وتشملكم الخبرة وأنتم ذوو العدد والعدة والاداة والقوة ، وعندكم السلاح والجنة (٥٩) ، توافيكم الدعوة فلا تجيبون ، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون ، وأنتم موصوفون بالكفاح ، معروفون بالخير والصلاح ، والنخبة التي انتخبت ، والخيرة التي

---

(٥١) الاهالة : الدسم ، وذلك مثل يضرب لمن يخبر بالشيء قبل حدوثه وكماله (٥٢) وهيه : أي خرقه .

(٥٣) استنهر : اتسع (٥٤) الرتق : الاصلاح .

(٥٥) أي قل خيرها (٥٦) أديلت : غلبت

(٥٧) البائقة : الداهية (٥٨) خطاب الى قبيلتي الاوس والخزرج من الانصار (٥٩) الجنة ـ بالضم ـ : ما استترت به من السلاح

أختيرت ، لنا ـ اهل البيت ـ قاتلتم العربَ وتحملتم الكدَّ والتعب ، وناطحتم الامم وكافحتم البهم : فلا نبرح وتبرحون ، نأمركم فتأتمرون ، حتى إذا دارت بنا رحى الاسلام ، ودرَّ حلبُ الايام ، وخضعت نعرةُ الشرك (٦٠) وسكنت فورةُ الافك ، وخمدت نيرانُ الكفر ، وهدأت دعوةُ الهَرج ، واستوسق نظامُ الدين ، فأنى جرتم بعد البيان ، (٦١) واسررتم بعد الاعلان ، ونكصتم بعد الاقدام (٦٢) ، وأشركتم بعد الايمان ، بؤسا لقوم (نكثوا أيمانهم ، وهمّوا بأخراج الرسول ، وهم بدؤكم أولَّ مرة) أتخشونهم ؟ (واللهُ أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) .

ألا وقد أرى ان قد أخلدتم الى الخفض وأبعدتم من هو احق بالبسطَ والقبض ، وركنتم الى الدعة (٦٣) ونجوتم من الضيق بالسعة ، فمججتم ما وعيتم (٦٤) ودسعتم ما تسوّغتم (٦٥) : « فان تكفروا أنتم ومن في الارض جميعا ، فان الله لغنيٌّ حميد » .

ألا وقد قلت ما قلت على معرفةٍ مني ، بالخذلة التي خامرتكم ، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم : ولكنها فيضة النفس ، وبثة الصدر ، ونفثة الغيظ ، وتقدمةالحجة ، فدونكموها فأحتقبوها دسرةَ الظهر ، (٦٧)

---

(٦٠) النعرة ـ بوزن الشعرة ـ : صوت في الخيشوم .

(٦١) جار عن الشيء : مال عنه (٦٢) نكص : أحجم وتأخر .

(٦٣) أخلد : مال وركن . والخفض : سعة العيش .

(٦٤) الدعة ـ بالكسر ـ : الراحة والسكون .

(٦٥) مجَّ الشراب : رماه من فيه . (٦٦) الدَّسع : القيء ، وتسوغ الشراب : شربه بسهولة . (٦٧) احتقبوها ، أي احملوها على ظهوركم ، ودبرة الظهر ـ بالفتح فالكسر ـ : الجراحة التي تظهر

نقبةَ الخفِ ، [٦٨] باقية العار ، موسومةً بغضب الله وشنار الابد ، [٦٩] موصومةً بـ (نار الله الموقدة التي تطلع على الافئدة انهـا عليهم موصدة) فبعين الله [٧٠] ماتفعلون « وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون » . وأنا ابنةُ نذير لكم بين يدي عذاب شديد . « فأعملوا إنا عاملون ، وأنتظروا إنا منتظرون » .

على ظهر البعير من الرحل (٦٨) نقب خف البعير : رق وتثقب .

(٦٩) الشنار : العيب والعار (٧٠) الموصدة : المطبقة .

(كتابـــك)

حقاً كتابُك تحفةُ الاجيـــال ... فيما احتوى عن أحمدٍ والآل
أهديتـــــه لمحمدٍ ووصيّه ... نعم الذي أهديت خير مثـــال
إني مررتُ على السطور فهزني ... ما فيه من حكمٍ ومن أمثـــال
ما أحوج الدنيـــا لمثلك كاتباً ... يغذو الورى ببيانه السلسال
فأعمل لنشر عقيدٍ وشريعـــة ... هجرت وكادت تنطوي بزوال

عبد الحسين مهدي الصالح

شكر وتقدير :

يطيب لي ــ وأنا آتي على خاتمة المطاف في حديثي عن الصديقة الزهراء (ع) : أن أقدّم جزيل شكري وأجلّ تقديري لأخي في الله الاديب الالمعي الاستاذ عبد الحسين مهدي الصالح الذي تولّى مهمة استنساخ كتابي هذا عن نسخته الاولى ، ولا أملك غير أن أرفع يدي الضراعة الى الله العلي القدير أن يمنّ عليه بتوفيقاته ، وأن يجعله دوماً من جنود دينه القويم وشرعه المقدس ، بمحمدٍ وآله الطاهرين .

المؤلف

مصادر البحث

القرآن الكريم

نهج البلاغة وشروحه

كتب الاخبار الاربعة : الكافي

التهذيب ،الاستبصار ، من لايحضره الفقيه

كتب الصحاح الست للبخاري ، ومسلم ،

وابن ماجه والترمذي واحمد وأبي داود..

أبو طالب مؤمن قريش للخنيزي

التبيان للشيخ الطوسي

الاحتجاج للطبرسي

الدمعة الساكبة لمحمد باقر النجفي

أسعاف الراغبين للصبان

إعلام الورى للطبرسي

أقتصادنا لمحمد باقر الصدر

الكشاف للزمخشري

المجالس السنية للأمين العاملي

المراجعات لشرف الدين

المدرسة الاسلامية لمحمد باقر الصدر

المناقب للخوارزمي

النص والاجتهاد لشرف الدين

تاريخ اليعقوبي لابن واضح

حياة الامام الحسن للقرشي

ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري

رسالتنا لجماعة العلماء

زينب الكبرى للنقدي

فضائل الخمسة لمرتضى الحسيني

كشف الغمة للاربلي

مجمع البيان للطبرسي

مناقب آل أبي طالب للمازندراني

نور الابصار للشبلنجي

ينابيع المودة للقندوزي

الفهرس

صفحة	المحتوى
٥ ــ ٨	بين يدي الكتاب : لمحة عن الكتاب والمؤلف من قبل إدارة (المكتبة) .
٩	الإهداء : من قبل مؤلف الكتاب .
١١	آيات من كتاب الله : تخص أهل البيت عليهم السلام .
١٣	كلمات مشرقة : مقتطفات من خطبة الزهراء عليها السلام
١٥ ــ ١٧	مقدمة الكتاب : يكتبها المؤلف بإيجاز .
١٩ ــ ٢٧	المدخل : في ولادة النبي (ص) ونشأته ومبعثه وجهاده المر في سبيل الدعوة .
٢٩ ــ ٣٤	يوم سعيد : في ولادة الزهراء (ع) وتربيتها ونشأتها .
٣٥ ــ ٤٣	في معسكر الايمان : بيان مفصل عن موقف المسلمين المشرف وهجرتهم الى الحبشة ، ودور أبي طالب وخديجة في سبيل تدعيم قواعد الرسالة وأخيرا بيان موقف النبي الصلب تجاه الدعوة ، وهجرته الى المدينة ، وموقف أمير المؤمنين (ع) من تلك المشاهد
٤٥ ــ ٥٠	في الطريق الى يثرب : وينتقل دور القيادة الاسلامية من مكة الى يثرب ، بيان مواقف علي (ع) الجبارة في ذلك المجال .
٥١ ــ ٦٢	بيت جديد : في زواج الزهراء من علي ــ عليهما السلام ــ مقدار صداقها ، ونوعية جهاز العروسين وبساطته ، وأخيرا بيان رأي الاسلام في تسهيل الزواج

صفحة المحتوى

وبساطة المهور ، ومايترتب على عكس ذلك من المفاسد

٦٣ ــ ٦٩ مراسيم الزواج : عرض للحفاوة البالغة من قبل النبي وأزواجه وأصحابه في زفاف الزهراء (عليها السلام)

٧١ ــ ٨٠ الغرس المبارك : وبيان ثمرته بولادة الحسنين (ع) وزينب وأم كلثوم ، نظرة خاطفة عما لقي هؤلاء من مصائب في سبيل الدعوة الى الله

٨١ ــ ١٠٢ الزهراء في منطق الرسالة الاسلامية : ١ ــ في نظر القرآن الكريم . واستعراض ما ورد فيها من آيات ، ٢ ــ في ظلال السنة الشريفة ، وبيان ما ورد من الاحاديث النبوية في فضلها .

١٠٣ ــ ١١٢ نقاط مضيئة : ولمحات مشرقة من سيرة الزهراء (ع) وسلوكها الاسلامي والاجتماعي ، والاخلاقي ، خصوصا مع أبيها وزوجها وأولادها .

١١٣ ــ ١٣٨ من بوادر المأساة : (١) ــ الخطب الجلل ، بموت القائد محمد (ص) (٢) ــ هبوب العاصفة . وظهور بوادر الخطر على الصديقة الزهراء من قبل (القوم) (٣) ــ وقفة على أطلال فدك ، بتحقيق بسيط عن تأريخها وكيفية تصرف الزهراء بها في زمن أبيها ، وتأميمها من قبل أبي بكر (٤) ــ الحجج الناصعة يستعرضها المؤلف في ثنايا خطبة الزهراء (ع) وكيف أفحمت الخليفة بذلك ، وتخلصه منها بالحديث الذي أنفرد بروايته عن النبي (ص) (٥) ــ تقييم الموقف ، وبيان السر

صفحة	المحتوى
	في تصلب الخليفة تجاه (فدك) وذكر أسرار تشدد الزهراء (ع) في المطالبة بفدك الي أبعد الحدود .
١٣٩ ــ ١٥٣	في ذمة الخلود : ذكر المصائب التي تجرّعتها الزهراء من قبل القوم حتى أصبحت رهينة المرض والوسادة، ثم ذكر خطبتها الاولى ــ على نساء المهاجرين والانصار واللائي عدنها في مرضها ، ووصيتها لعلي ، وبيان وفاتها وتجهيزها ودفنها ، ورثائها من قبل أمير المؤمنين ،والملابسات التي مرت على تلك الفترة.
١٥٥ ــ ٢٠٤	أضواء على تراث الزهراء : (١) تمهيد : الى خطبة الزهراء (ع) (٢) ــ أبعاد الجاهلية : وعرض الصور البشعة من تاريخ العرب المظلم كما تعكسها الزهراء في طليعة خطبتها المشهورة (٣) فلسفة الاسلام في منطق الزهراء (ع) من الجانبين : العقيدي ، والمذهبي، ومن ثم شرح مفصل للجوانب الاسلامية المشرقة من الخطبة : فقرة فقرة .
٢٠٥ ــ ٢١٨	نهاية المطاف : بعد أن يستوعب المؤلف الجوانب المهمة من الخطبة الشريفة بالشرح والبيان ، يدرج نص الخطبة ــ بكاملها ــ بعد تحقيق مصادرها وشرح بعض فقراتها اللغوية ، وبذلك ينتهي الكتاب .
٢١٩	أبيات مدح ، وشكر من المؤلف عليها .
٢٢٠	ذكر اهم المصادر التي أعتمد عليها الكتاب .

أنتظروا قريباً :

الكتاب الفائز بالجائزة الثالثة

« فاطمة : الحوراء الانسية »

تأليف : جاسم هاشم العبادي ـ من العمارة ـ

مطبعة النعمان ـ النجف الاشرف تلفون ٩٩٧

Elmer Holmes
Bobst Library

New York
University

NYU - BOBST
31142 01011 0560
BP80.F36 M83
al-Zahra Fatimah bint Muhammad